DOSTOEVSKY

دوستويفسكي

Telegram:@mbooks90

صاحب القلب الكسير

A WEAK HEART

رواية

ترجمها عن النص الروسي الأصلي

عبد الرحمن عبد الرحمن الخميسي

دار دَوِّنْ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة

بقلم المترجم

هل يمكننا الفوز بالسعادة المنشودة في الحياة؟ وكيف يمكننا الفوز بها وتجاوز عقباتها وتحدياتها وتناقضاتها؟ وهل نستحق الفوز بها؟

هذه هي الأسئلة العميقة التي يطرحها دوستويفسكي في هذه الرواية القصيرة، والتي يواصل تناولها بتنويعات مختلفة في أعماله الضخمة اللاحقة.

يستعرض دوستويفسكي في هذا العمل أنماطًا متنوعة من الشخصيات الذين تدور حكاياتهم داخل أرجاء مدينة بطرسبورج، وذلك استمرارًا لأعماله الأدبية السابقة الناقدة للأوضاع الاجتماعية والطبقية السائدة، وتأثيرها في أبطاله وحياتهم ومصائرهم. وقد كتبها في خلال فترة تأثره العميق بأفكار الاشتراكية الطوباوية(11)، والتي انعكست في الرغبة الشديدة لدى بطل هذه الرواية، في أن يرى البشر جميعًا يتمتعون بالسعادة مثله، وأن يختفي البؤس من على وجه البسيطة. وعندما يتبع هذه الرغبة الشعور المأساوي القاتل بظلم القدر وبؤس المصير، يعيش تحديًا جديدًا يفرض عليه البحث عن مخرج آمن قبل وقوع الكارثة ويطرح تساؤلًا لدى القارئ إذا كان البطل قادرًا على تحمّل تلك السعادة المرجوة أم لا.

يصور لنا دوستويفسكي في هذه الرواية موظفًا صغيرًا فقيرًا، لا

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يفارقه الشعور بالدونية الاجتماعية، والذي يسيطر عليه انطلاقًا من إحساسه العميق بأن وضعه الاجتماعي المتدني يجعله غير جدير بها، حتى عندما تهبط عليه تلك السعادة في صورة الحبيبة العاشقة له، والتي قبلت أن تصبح زوجته، ويبقى السؤال الذي نقرأ إجابته بين السطور إذا ما كان باستطاعة بطلنا السيطرة على كل هذه المشاعر المختلطة بمفرده في نهاية المطاف.

ويُعبر دوستويفسكي في هذه الرواية القصيرة عن المعاناة اللانهائية لقلب الإنسان، والألم المرير الذي تخلفه هذه المعاناة، وقسوة المجتمع المتوحش، واستحالة الحصول على السعادة الشخصية، واستحالة قبولها أيضًا.

بالإضافة إلى ما سبق، ففي هذه الرواية البديعة، يواصل الكاتب عدم اعترافه بـ "الأشياء"، أو "الجماد"، تلك السمة المميزة لمعظم أعماله في سرده للأحداث، فدائمًا ما يبعث الحياة في كل ما يحيط بأبطاله، من المدينة التي تحتويهم مثل كائن خرافي، إلى البيوت وجدرانها وتفاعلها معهم وتأثيرها فيهم، حتى الثياب والمعاطف والقبعات. فنرى في حكايتنا هذه، وصفًا للبطل العاشق صاحب القلب الكسير، يقف في متجر لبيع القبعات، كي يختار واحدة منها لمحبوبته، ومن بين عشرات القبعات المرصوصة فوق الحوامل الخشبية، تبرز تلك القبعة الساحرة، التي تطل عليه وتغازله، فتلوح له بشرائطها الناعمة الرقيقة بلون الكرز، ترفرف بها في الهواء كجناحي طائر، وكأنها تناديه راجية أن يلتقطها دون القبعات الأخرى، كي تتربع فوق رأس محبوبته،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحتضن بجوانبها خصلات شعرها المنسدلة، فتدفئها وتتدفأ بها. وبعد أن نجحت في خطف بصره وقلبه، استجاب لندائها وقرر اختيارها، وما إن مد يده نحوها ليحررها من الحامل، حتى بدا أن القبعة قد طارت محلقة نحوه من تلقاء نفسها، من فرط سعادتها بهذا المشتري الطيب الذي راقها بعد طول انتظار.

ختامًا، أرجو أن يستمتع القارئ بهذا العمل الرائع للكاتب العظيم، فعلى رغم مرور حوالي مائة وسبعين عامًا على كتابته لهذه الرواية، فإنه يظل متفردًا ببريق لا يخبو، يدفعنا للتأمل في جوهر الحياة ومفرداتها المتنوعة الكامنة في نفوسنا، بريق غير مسبوق لا تخلو منه كل أعمال الأديب العملاق.

عبد الرحمن عبد الرحمن الخميسي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاحب القلب الكسير

تعود هذه الرواية القصيرة إلى الأعمال الإبداعية المبكرة لدوستويفسكي. وقد تم نشرها لأول مرة عام ١٨٤٨، بالعدد الثاني من المجلة الأدبية الروسية "مذكرات من قلب الوطن".

تحت سقف واحد، في شقة واحدة بالطابق الرابع، عاش شابان رفيقان في العمل، هما: أركادي إيفانوفيتش نفيديفيتش، وصديقه فاسنكا شومكوف...

بالطبع، يشعر الكاتب أن عليه بالضرورة تقديم تفسير للقارئ حول سبب ذكر الاسم الكامل لأحد أبطال روايته، والاكتفاء بذكر اسم التصغير للشخصية الأخرى، وذلك كي لا يُنظر إلى طريقة التعبير هذه باعتبارها غير لائقة ولا مألوفة بدرجة أو بأخرى. ولكن لو خاض الكاتب في هذا الأمر، لكان عليه أولًا شرح ووصف الدرجة الوظيفية، والعمر، والمُسمى الوظيفي، والمنصب، حتى نصل إلى الطباع المميزة للشخصيات أخيرًا. ونظرًا لأن العديد من أمثال أولئك الكتّاب يبدأون بهذه الطريقة، فإن مؤلف هذه القصة المقترحة، قد قرر الدخول مباشرة في لب الأحداث، وذلك فقط كي يتميز عنهم (أي أن السبب في ذلك، كما سوف يقول البعض، ربما يعود إلى الشعور المفرط بعبودية الذات).

بعد الانتهاء من هذه المقدمة، ها هو الكاتب يبدأ في سرده للأحداث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في المساء، عشية ليلة العام الجديد، عاد فاسنكا شومكوف إلى منزله قرابة الساعة السادسة صباحًا. واستيقظ أركادي إيفانوفيتش، الذي كان راقدًا على الفراش، ونظر إلى صديقه بطرف عينيه نصف المغمضتين. وعندما تطلع إليه شاهده متأنقًا، مرتديًا أفضل بزة لديه وأنظف قميص. وقد أذهله هذا الأمر بالطبع، وتساءل في نفسه: "تُرى أين ذهب فاسنكا مهندمًا على هذا النحو؟ إنه حتى لم يتناول الطعام اليوم في البيت"! في غضون ذلك، أشعل شومكوف شمعة، وخمن أركادي إيفانوفيتش على الفور أن صديقه سوف يتعمد إيقاظه وكأنه لم يتعمد ذلك. وبالفعل، سعل فاسنكا مرتين، وذرع أرجاء الغرفة مرتين، وأخيرًا، وكأنما عن طريق الصدفة تمامًا، أسقط غليونه الذي بدأ يحشوه بالتبغ، وهو جالس في ركن بالقرب من المدفأة. ضحك أركادي إيفانوفيتش في داخله. وصاح:

- كفاك مكرًا يا فاسنكا(10)!

- ألست نائمًا يا أركاشا(9)؟

- في الحقيقة لا أستطيع الجزم بهذا، ولكن.. يبدو لي أنني مستيقظ.

- آه لو تدري يا أركاشا.. دمتَ لي أيها الغالى.. آه لو تعلم أيها الأخ.. آه لو تعلم أيها العزيز.. أنت لا تعرف ما سوف أخبرك به!

- أستطيع الجزم بأنني لا أعرف بالفعل، هيا، هيا اقترب مني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأخبرني..

كان فاسنكا بانتظار تلك الدعوة في لهفة شديدة، وسرعان ما ركض نحو صاحبه، دون أن ينتبه إلى ما يضمره أركادي إيفانوفيتش من خداع. فقد وثب أركادي وقبض على ذراعي فاسنكا بحركة خاطفة وجذبه إلى الفراش، ثم جثم فوق رأسه وبدأ، كما يقال، في "خنق" الضحية، مما منح أركادي الضحوك متعة لا تُضاهَى. وظل يهتف في مرح:

- هأنا قبضت عليك!.. هأنت سقطت في قبضتي.. هاها..

- كفى يا أركاشا.. اتركني.. ما الذي تفعله يا أركاشا؟ اتركني الله يحفظك.. لقد لطخت معطفي بيديك!

- لا أرى ضرورة كي أتركك.. وما حاجتك إلى هذا المعطف؟ ولماذا تظل ساذجًا حسن النية وتقع بين يديَّ بهذه السهولة؟ هيا اعترف وأخبرني، أين اختفيت طوال اليوم؟ أين تناولت طعامك؟

- اتركني يا أركاشا أستحلفك بالله!

- أخبرني أولًا، أين تناولت طعام الغداء؟

- نعم، نعم، هذا ما كنت أود الحكي عنه.

- إذًا، هيا تكلم.

- حسنًا، ولكن اتركني أولًا وسوف أحكي لك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هاه.. لن أتركك حتى تبدأ قصتك.

صرخ فاسنكا ذو البنية الضعيفة محاولًا التملص من قبضة اليد القوية لرفيقه، وصاح متوسلًا:

- أركاشا! اتركني يا أركاشا! لا يمكنني الحديث وأنا في هذا الوضع، ألا تدرك أن هناك بعض الموضوعات لا يمكن الحديث عنها بهذه الطريقة؟

- وما هي هذه الموضوعات؟

- الموضوعات التي تفقد وقارها وأهميتها لو بدأت في الحديث عنها وأنا بهذا الحال، وتتحول إلى أمر يثير السخرية، في حين القصة جادة في حقيقتها، بل إن الأمر شديد الأهمية، ولا يدعو للضحك أو السخرية على الإطلاق.

- أووه.. يا لموضوعاتك الخطيرة! تُرى ما الذي ابتكرته مخيلتك؟ عليك أن تحكي لي ما تريده، ولكن بالطريقة التي تجعلني أضحك بها، أما الموضوعات الجادة والخطيرة فلا أريد سماعها، وإلا فما فائدة صداقتك؟ وما جدوى أن تكون رفيقًا لي؟

- أرجوك أن تكف يا أركاشا، بحق الله استمع لي على محمل الجد.

- لا، لا أريد الاستماع.

ظل فاسنكا مستلقيًا على الفراش، وبدأ في الحديث ساعيًا بكل قوته أن يضفي على كلماته هالة الوقار والأهمية، وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حسنًا، سوف أحكي لك، ولكن...

- ولكن..هاه.. ماذا حدث؟

- لقد.. لقد قررت الزواج.

لم ينطق أركادي إيفانوفيتش بكلمة واحدة، بل رفع فاسنكا بصمت وحمله بين ذراعيه مثل طفل صغير، على الرغم من أن فاسنكا لم يكن قصير القامة، ولكنه كان نحيفًا معتدل القامة، وبدأ حاملًا إياه يطوف به أركان الغرفة متنقلًا من زاوية إلى أخرى بمهارة شديدة، متخذا هيئة من يهدهد رضيعًا ويهدئ من روعه، ثم همس بنبرة خافتة:

- والآن سوف أضعك في القماط (8) أيها العريس.

لكنه انتبه إلى أن فاسنكا لا يتحرك ولا ينطق وهو بين ذراعيه، فقرر التوقف عن سلوكه المضحك والعدول عن المزاح، وأجلسه في منتصف الحجرة. وقبَّله على وجنته بأخلص وأصدق المشاعر الودية. وقال:

- فاسنكا! هل أغضبك مزاحي؟

- اسمعني الآن يا أركاشا..

- ما فعلته هذا لمناسبة حلول العام الجديد.

- أنا لم أغضب.. ولكن لماذا تظل تقوم بأفعال خرقاء مثل المجانين؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكم مرة توسلت إليك قائلًا: أرجوك يا أركاشا أن تتوقف عن الشطط والمبالغة في المزاح؟

- نعم، أنت على حق.. أما زلتَ غاضبًا مني؟

- لا، لا، وهل يمكن أن أغضب منك؟ ولكنك.. أحبطتني.. نعم، هل تفهم؟

- ما الذي تقوله؟ كيف أحبطتك؟ ولماذا أحبطتك؟

- لأنني جئت إليك فاتحًا قلبي باعتبارك رفيقي المقرب، كي أسكب أمامك ما يفور في روحي، وأحكي لك عن سعادتي.

- عن أي سعادة تتحدث؟ فأنت لم تحك لي شيئًا.

رد فاسنكا بلهجة منزعجة يشوبها الحزن لأنه كان غاضبًا بعض الشيء، وقال:

- أنا.. سوف أتزوج، ألم تفهم بعد؟

صاح أركاشا بصوت عالٍ والكلمات تتسارع بالخروج من فمه:

- أنت يا فاسنكا؟ حقًّا سوف تتزوج؟ هل يعقل هذا الأمر؟

انهمرت الدموع من عينَي أركادي وهو يصيح من شدة المفاجأة:

- فاسنكا يا ابني الصغير، هل تتزوج في حقيقة الأمر؟ هل أصدق أذنيَّ وسمعتك تقول هذا حقًّا؟

واندفع أركادي إيفانوفيتش نحو رفيقه مرة أخرى يعانقه بحرارة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال فاسنكا:

- هل تدرك الآن السبب في كل ما يجري؟ فأنت رفيقي الطيب الحنون، وأنا أعلم هذا جيدًا.. لذلك أقبلت إليك بقلب يرقص طربًا، وروح تفيض بالبهجة، وإذا بي أجد نفسي فجأة مضطرًا إلى الكشف لك عن فرحتي وسعادة قلبي، وأنا أتشقلب مهانًا بين يديك فوق الفراش..

واصل فاسنكا حديثه بنبرة شبه ضاحكة:

- هل تفهم ما أريد قوله يا أركاشا؟ كان هذا مشهدًا كوميديًّا حقًّا، في حين شعرت في تلك اللحظة أنني أحلق بعيدًا عن نفسي بدرجة أو بأخرى، ولم يكن بوسعي الاستخفاف بهذا الأمر.. لم يبق سوى أن تسألني عن اسمها، وأقسم لك إنك لو قتلتني حتى لما أجبتك.

صاح أركادي إيفانوفيتش وقد تملكه شعور حقيقي بالارتباك:

- ولكن.. ولكن فاسنكا لماذا التزمت الصمت! لو أنك أخبرتني بكل شيء من قبل، لما مضيت في العبث معك على هذا النحو.

قال فاسنكا:

- حسنًا، كفى، كفى.. لا تزد كلمة أخرى. فقد قمت بما فعلته.. بوازع تدركه جيدًا على ما أظن، فكل ما فعلته نابع من مشاعر قلبي الطيب نحوك، وكم أشعر الآن بالحزن والألم لأنني لم أخبرك بالطريقة التي تخيلتها، ولم أجعلك تشعر بالسعادة والفرح، وأخصك بالمعاملة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجيدة اللائقة، فأنا في الواقع يا أركاشا أُكِنُّ لك حبًّا لا تتصوره، ولولا وجودك في حياتي لما أقدمت على فكرة الزواج، بل لما استطعت البقاء في هذه الدنيا على الإطلاق.

كان أركادي إيفانوفيتش مرهف الحس إلى أقصى الحدود، فأخذ يضحك ويبكي في آن واحد وهو يُصغي إلى حديث فاسنكا. كما فعل فاسنكا نفس الشيء. فتعانقا بحرارة مرة أخرى ونسيا عتابهما السابق.

صاح أركادي إيفانوفيتش محدقًا إلى وجه فاسنكا بنظرات شك حقيقية:

- ولكن كيف؟ كيف حدث ذلك؟ احك لي كل شيء بالتفصيل يا فاسنكا! فأنا يا أخي، واعذرني أرجوك، فأنا مدهوش، مدهوش تمامًا.. أقسم لك بالله.. أكاد أشعر وكأن صاعقة ضربتني من شدة المفاجأة، وأشعر يا أخي أنك والله تختلق كل هذا، أليس كذلك؟ أأنت تختلق وتتخيل حقًّا؟!

ولكنه عندما رأى في وجه رفيقه تأكيدًا صادقًا مذهلًا على نيته للزواج في أسرع وقت ممكن، ألقى بنفسه في الفراش وبدأ يتشقلب فوقه، حتى اهتزت الجدران من شدة حركاته، وقد تملكته بهجة عامرة. وعندما استقر أخيرًا بهدوء فوق الفراش هتف بصاحبه مناديًا:

- فاسنكا! تعال اجلس هنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- صدقني يا أخي.. لا أدري من أين أبدأ الحكي.

نظر كلاهما إلى الآخر نظرات تفيض بالإثارة الفرحة.

قال فاسنكا بصوت ناعم من فرط السعادة:

- إنها من عائلة أرتيميف.

- لا.. هذا لا يُعقل.

- نعم، ألم أشبع أذنيك حديثًا عنهم من قبل؟ وبعد ذلك توقفت عن الكلام عنهم.. وأنت لم تلاحظ شيئًا في ذلك الوقت.. آه لو تدري يا أركاشا كم تحملت من عناء كي أخفي عليك ما يجري معي، فقد تملكني خوف شديد من الحديث حول هذا الأمر، وذلك لخشيتي من الإخفاق وانهيار كل أحلامي.. فأنا عاشق لها يا أركاشا.. يا ربي.. ساعدني يا ربي فكم أحبها.. وهاك هي الحكاية يا عزيزي.. سأخبرك بحكايتي.

مضى في الحديث وهو يلهث ويتوقف بين الكلمة والأخرى باستمرار من فرط الانفعال:

- كان لها خطيب قبل عام مضى، ولكنه سافر فجأة في مهمة عمل إلى أحد الأماكن. وقد كنت على معرفة به، وإن كان هذا لا يهم في شيء، خلاصة الأمر أنه بعد ذلك توقف عن الكتابة لهم وانقطعت أخباره عنهم تمامًا. وبينما ظلوا ينتظرون، وينتظرون، ويضربون أخماسًا في أسداس لتفسير ما جرى منه، إذا به يصل فجأة قبل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أربعة أشهر متزوجًا، دون أن يخطر بباله حتى المرور بهم والاعتذار عن فعلته الدنيئة. فيا للفظاظة والخسة والحقارة! ولم يكن لديهم من يشفع لهم أو يقتص لهم منه. ومضت المسكينة البائسة في البكاء حتى جفت الدموع في عينيها، أما أنا فكنت العاشق لها، الولهان في حبها منذ الأزل، أنا الذي لم أكف لحظة عن حبها قط. صرت أواسيها وأطيب خاطرها، وأخذت أتردد إليها وأزورها.. وفي الحقيقة، فأنا ما زلت أتساءل حتى الآن: كيف جرى كل هذا؟ كيف بادلتني الحب؟ وقبل أسبوع فقط لم أستطع تحمل عاطفتي التي تتأجج بداخلي وكتمانها في قلبي، فأجهشت بالبكاء الحار، وصارحتها بكل شيء في كلمة واحدة، كلمة: أحبك، الكلمة التي تحمل كل ما يجيش في قلبي، فقالت: "وأنا أيضًا يا فاسيلي بتروفيتش على استعداد لأحبك، ولكني فتاة بائسة فقيرة فلا تستخف بي، لأني صرت أخشى الإقدام على الحب". هل تدرك ما جرى يا أخي؟ هل تفهم؟ لقد تعاهدنا معًا على هذا النحو، وأخذت أفكر وأفكر وسألتها: "ما الوسيلة التي أخبر بها الأم؟"، فأجابتني: "هذا أمر صعب للغاية في الوقت الحالي، فلننتظر بعض الوقت". كانت تخشى رفض أمها، وقالت: "أظنها لن تقبل أن تمنحني لك". وبعد ذلك انخرطت في بكاء مرير. أما أنا، ودون أن أخبرها بشيء، فقد ذهبت اليوم إلى أمها العجوز، وتحدثت معها. وجثت ليزنكا(7) على ركبتيها أمامها، وقمت أنا أيضًا بنفس الأمر.. وفي النهاية قامت العجوز بمباركتنا. آه يا أركاشا، أركاشا! آه يا عزيزي! عليك أن تعلم أننا سوف نظل نعيش معًا، ولن أفارقك أبدًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مهما جرى.

- أتعلم يا فاسنكا، مهما نظرت إليك واستمعت لك، فما زلت لا أستطيع تصديقك، أقسم لك بالله إنني لا أصدق أذنيَّ... فكل شيء يبدو لي خيالًا... أخبرني.. هل يمكن حدوث هذا بالفعل؟ أسوف تتزوج حقًّا؟.. وكيف لم أخمن ولم أعرف بهذا؟ أخبرني يا أخي.. أعترف لك يا فاسنكا بأنني شخصيًّا فكرت بالفعل في الزواج يا أخي، وإذا بك أنت الذي يتزوج الآن.. لكن الأمر واحد في النهاية! ولتنعم بالسعادة، لتنعم بالسعادة!

وقف فاسنكا ومضى يجول أركان الحجرة منفعلًا، وقال:

- أتعلم يا أخي ما أشعر به الآن؟ أشعر بمذاق حلو يغمر قلبي، وبروحي تحلق من خفتها... أليس كذلك، أليس هذا ما يحدث؟ ألا تشعر بذلك أيضًا؟ بالطبع سوف نعيش حياة متواضعة الحال، لكننا سوف نتمتع بالسعادة، السعادة الحقيقية وليست الوهمية.. فسعادتنا ليست مجرد عبارة منقولة عن كتاب: بل إننا سوف نكون سعداء على أرض الواقع!

- فاسنكا.. استمع لما سأقوله لك يا فاسنكا..

توقف فاسنكا أمام أركادي إيفانوفيتش، وقال:

- ما الذي تريد قوله؟

- هناك خاطر يلوح في عقلي، وأخشى حقًّا أن أخبرك به.. ولكني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سوف أسألك بطريقة أو بأخرى.. وأرجو أن تسامحني، وتبدد شكوكي.. ما المورد الذي سوف تعيش منه؟ أنت تعلم بالطبع كم أنا سعيد لأنك سوف تتزوج، ويغمرني الفرح، حتى أكاد لا أتمالك نفسي، ولكن.. بأي مورد سوف تعيش بعد الزواج؟

قال فاسنكا محدقًا إلى وجه نفيديفيتش وقد تملكته دهشة شديدة:

- ارحمني يا الله.. يا رب السماوات! ماذا بك يا أركاشا؟ وما هذا الذي تقوله؟ فحتى أمها نفسها لم تفكر أكثر من دقيقتين بعدما بسطت أمامها كل تفاصيل أحوالي.. عليك بالأحرى أن تسأل عن المورد الذي يعيشون به.. خمسمائة روبل في العام لثلاثة أفراد! هذا كل موردهم من معاش المرحوم رب البيت. تعيش به هي وأمها وشقيقها الصغير، الذي تدفع له مصروفات المدرسة من نفس المعاش. وها هم جميعًا يعيشون بذلك المبلغ. أما أنا وأنت فنعد من الرأسماليين مقارنة بهم. حيث إن دخلي في ظل الأحوال الجيدة، يصل إلى سبعمائة روبل في العام.

Telegram:@mbooks90

- اسمع يا فاسنكا، وأرجو أن تعذرني لما سوف أقوله، وأقسم بالله إن دافعي هو الخوف من تعثر الأمور بعد ذلك.. عن أي سبعمائة تتحدث؟ إنهم ثلاثمائة فقط يا عزيزي.

- ثلاثمائة!.. وماذا عن يوليان ماستاكوفيتش؟ هل نسيته؟

- يوليان ماستاكوفيتش! ولكن العمل معه يا أخي ليس مستديمًا، ولا يقارن بالثلاثمائة روبل الراتب الثابت المضمون، وكل روبل منه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو فقط الصديق الوفيّ الذي يمكن الاعتماد عليه. ذلك على الرغم من أن يوليان ماستاكوفيتش رجل عظيم الشأن بالطبع، وأنا أُكِنّ له الاحترام، وأقدر مكانته الرفيعة، ويعلم الله كم أحبه، لأنه يحبك ويعطيك عملًا بأجر إضافيّ، في حين كان بوسعه تكليفك به مباشرة بلا مقابل بوصفك موظفًا مرؤوسًا لديه، وإنني أقر لك يا فاسنكا، ولا أقول هراءً، أن المرء لن يجد في كل أرجاء مدينة بطرسبورج أحدًا يباريك في حسن خطك وروعته في النسخ.

ومضى نفيديفيتش يختتم حديثه بنبرة لا تخلو من البهجة:

ولكن.. لو حدث فجأة، لا قدر الله، أن عملك لم يعد يعجبه، أو أصبح فجأة غير راضٍ عنك، أو لم يعد لديه عمل لك فجأة، أو قرر الاستعانة بأحد آخر. وفي النهاية لا يمكنك التنبؤ بتبدل الأحوال، ولا اللحظة التي يمكن أن تتغير فيها! فمن الجائز أن يكون هناك يوليان ماستاكوفيتش، ومن الوارد أيضًا أن يتبخر ويتلاشى يا فاسنكا.

- اسمع يا أركاشا، بهذا المنطق الذي تتحدث به، فمن الجائز أن ينهار السقف فوق رؤوسنا الآن.

- بالطبع، هذا أيضًا أمر جائز بالطبع.

- إذًا فلتصغ لي أنت الآن.. واسمعني جيدًا.. ما الذي يجعله برأيك يستغنى عن خدماتي؟ هاه.. أخبرني.. فأنا أقوم بكل شيء بمنتهى الدقة والالتزام، كما أنه رجل يتسم بالطيبة والكرم الشديد، حتى إنه قد منحني اليوم خمسين روبلًا من الفضة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حقًّا يا فاسنكا؟ هل منحك هذه المكافأة؟

- هذه ليست مكافأة عن الوظيفة، بل دفع لي المال من جيبه الخاص، وذلك بعد أن قال لي: "إنك تعمل لحسابي منذ خمسة أشهر أيها العزيز، ولم تتقاض شيئًا في خلالها، فخذ هذا المال وشكرًا لك، وأدعو الله أن تكون راضيًا، فإني ممتن لك، ولا يجوز أن تعمل لحسابي بلا مقابل، أليس كذلك؟" هكذا قال لي، وبعدها انهمرت الدموع من عيني، ويعلم الله كم تأثرت بذلك يا أركاشا.

- وهل انتهيت من نسخ تلك الأوراق يا فاسنكا؟

- لا، لم أنته بعد من نسخها.

- ولماذا لم تنته من نسخها يا عزيزي فاسنكا؟ لماذا تتكاسل يا ملاكي؟

- لا تقلق يا أركادي، إنه أمر بسيط، فما زال لدي يومان من الوقت كي أنهي العمل، وسوف يسعفني الوقت لذلك.

- ولماذا لم تنه عملك حتى الآن؟ كيف يمكنك الإهمال على هذا النحو؟

- حسنًا، حسنًا، يا لك من رجل حاد الطباع، لا تنظر نحوي بهذه الهيئة الصارمة فأنت تجعل كل ما بداخلي يرتجف وقلبي يتألم من شدة الخفقان! أنت تقتلني بقسوتك، وهأنا أصرخ: آآآه.. آآه، تعقل وانظر إلى الأمر بروية وهدوء، وأقسم لك بالله إنني سوف أنهي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العمل في موعده.. سوف أنهيه.

صاح أركادي وهو يقفز في مكانه:

- وإذا لم تنجزه بعد أن منحك الرجل مكافأة اليوم؟ في حين تنوي الزواج في الوقت نفسه.. فماذا يكون موقفك حينذاك؟.. ويا له من موقف..

صرخ شومكوف قائلًا:

- كفى، كفى، سوف أجلس الآن وأنكب على العمل، حسنًا، حسنًا سوف أجلس في التو واللحظة.

- أوه.. كيف أمكنك الاستخفاف بهذه الطريقة يا عزيزي فاسنكا؟

- كفى يا أركاشا! كفى أرجوك، فلم يكن بوسعي الجلوس والانهماك في العمل، كنت مشتتًا لا أتمالك نفسي، كنت أجلس بالكاد في المكتب، وقلبي يكاد أن يخلع.. آه لو تعلم! آه! ولكني الآن سوف أجلس للعمل طوال الليل، وغدًا أجلس طوال الليل أيضًا، وبعد غد كذلك، وسوف أنهي العمل!

- هل ما زال أمامك الكثير من العمل؟

- أستحلفك بالله لا تزعجني الآن، لا تعطلني والتزم الصمت.

اقترب أركادي إيفانوفيتش من فراشه وهو يسير على أطراف أصابعه، ثم جلس، وما لبث فجأة أن أوشك على النهوض، ولكنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اضطر إلى الجلوس مرة أخرى، متذكرًا أن وقوفه ربما يزعج رفيقه، ذلك على الرغم من أنه لم يستطع الجلوس ساكنًا من شدة الانفعال: كان من الواضح أن تلك الأخبار قد قلبت كيانه تمامًا رأسًا على عقب، ولم يأخذ الشعور الأول بالبهجة كفايته من الوقت كي يفور ويتغلغل بداخله. ألقى نظرة نحو شومكوف، وبادله الأخير بنظرة وديعة، وابتسم ملوحًا له بإصبعه متوعدًا، إشارة إلى أن على أركادي عدم إزعاجه، وبعد ذلك قطب حاجبيه في عبوس رهيب، محدقًا إلى الأوراق كما لو أن نجاح العمل وسرعة إنجازه يتوقفان على هذا العبوس.

وبدا أنه لم يتغلب بعد على انفعاله بدوره، فقام بتغيير ريشة الكتابة، ودار بجسمه على الكرسي مستقرًّا في وضع مريح، وبدأ في الكتابة والنسخ مرة أخرى، لكن يده ظلت ترتجف، وأبت أصابعه أن تتحرك.

صاح فجأة وكأنما تذكر شيئًا لتوه، وقال:

- أتعلم يا أركاشا، لقد حدثتهم عنك.

أجابه أركادي:

- هل حقًّا فعلت؟ كنت أود سؤالك حول هذا الأمر، وماذا حدث بعد ذلك؟

- حدثتهم بالطبع، وسوف أقص عليك كل شيء لاحقًا.. لكنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خطأي إذ ذكرت هذا لك، وأقسم لك بالله إن هذا الخاطر خرج من رأسي بشكل عفوي، فبعد أن عاهدت نفسي ألا أتحدث معك قبل أن أنسخ أربع صفحات، إذا بي أظل أفكر بك وبهم.

وابتسم فاسنكا مواصلًا حديثه:

- أعترف لك يا أخي أنني لا أستطيع الكتابة الآن، لأني لا أستطيع التوقف عن التفكير بكما.

ساد الصمت لبعض الوقت.

صاح فاسنكا منزعجًا وهو يدق بالريشة فوق الطاولة:

- أووف، ما أسوأ هذه الريشة!

تناول فاسنكا بيده ريشة أخرى. وقال أركادي بصوت خفيض:

- أتسمح لي بكلمة واحدة يا فاسنكا؟

- هيا، قلها سريعًا، ولتكن المرة الأخيرة.

- هل بقي الكثير من العمل لتنجزه؟

انتفض فاسنكا مرتعدًا وكأن هذا السؤال قد ضربه في مقتل على نحو أفظع من أي شيء آخر في العالم.

- نعم يا أخي!.. نعم.. بقي الكثير، والكثير بصورة مفزعة!

- أتعرف، لقد راودتني فكرة.

- أي فكرة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا، لا داعي لهذا، استمر في الكتابة.

- ما هي الفكرة؟ هيا أخبرني.

- ها هي الساعة تشير إلى السابعة الآن يا فاسنكا.

ابتسم نفيديفيتش في هذه اللحظة وغمز بعينه لفاسنكا، لكنه بالرغم مع ذلك ظل على نجله بعض الشيء، لا يدري كيف يتقبل فاسنكا فكرته.

توقف فاسنكا عن الكتابة تمامًا، وحدق إلى عينيه مباشرة، حتى امتُقع وجهه من فرط الترقب، وقال:

- هاه، ما الذي تفكر به في النهاية؟

- لديَّ فكرة وجيهة.

- هيا انطق بها.

- أتعرف، أرى أنك لن تستطيع العمل وأنت على هذا الحال من الانفعال والتوتر.. انتظر.. انتظر ولا تقاطعني.

وثب نفيديفيتش من فوق الفراش منتشيًا من سيطرة الفكرة على رأسه، ليقاطع كل سبل فاسنكا للحديث، ويمنع اعتراضه بكل الوسائل.

- بادئ ذي بدء، عليك أن تجنح إلى الهدوء وتكبح انفعالك، كما أنك تحتاج إلى شحذ قواك، وجمع شتات روحك، أليس كذلك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاح فاسنكا وهو يقفز من فوق كرسيه:

- أركاشا! أركاشا! سوف أجلس للعمل طوال الليل، والله سأفعلها!

- هاه، نعم، نعم! سوف يغلب عليك النوم مع طلوع الصباح فقط.

- لن أنام، أعدك بأنني لن أنام مهما جرى.

- لا، هذا لن يحدث بالطبع، لن يمكنك فعل هذا، بالتأكيد لن تتحمل وسوف يغلبك النعاس، وأرى أن تغفو في الساعة الخامسة، ثم أوقظك في الثامنة. غدًا يوم عطلة، يمكنك أن تجلس وتشخبط طوال النهار.. ثم تواصل في الليل.. ولكن هل بقي لك الكثير من الصفحات لتنسخها؟

- نعم، ها هي.

وارتعد جسد فاسنكا من فرط التوتر والترقب وهو يكشف كراسة الأوراق لرفيقه، قائلًا:

- هذا ما تبقى.

- ماذا بك يا أخي؟ إنها كمية صغيرة للغاية.

أجاب فاسنكا مستكينًا وهو ينظر بخجل شديد إلى نفيديفيتش وكأن رفيقه هو من يملك التصريح بالتوقف أو الاستمرار في العمل:

- ما زال هناك بعض الصفحات الأخرى يا عزيزي.

- كم صفحة هناك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- صفحتان.

- يا له من أمر بسيط، أصغ لما سأقوله لك! سوف يكون لدينا الوقت الكافي لننهي العمل، والله سوف يكفي الوقت لإنجازه.

- حقًّا يا أركاشا؟

- نعم، والآن اسمعني! اليوم ليلة رأس السنة الجديدة، والجميع يجتمعون مع عائلاتهم في مثل هذا اليوم، عدانا أنا وأنت فقط، فنحن المشردان، اليتيمان الوحيدان.. آه يا عزيزى فاسنكا!

قبض أركادي نفيديفيتش على كتفَي فاسنكا بكفيه واعتصرهما بقوة بين ذراعيه القويتين مثل فكّي الأسد.

- هذا ما كنت أريد الحديث حوله يا فاسنكا، أترى ما أود قوله يا عزيزي فاسنكا يا صاحب الفطرة الطيبة؟ ألسنا...

توقف أركادي عن الحديث فاغرًا فاه من فرط الانفعال الذي تملكه، فأمسك به فاسنكا من كتفيه، وظل يحدق إليه بقدر ما يمكن لعينيه أن تتسعا، وأخذ يحرك شفتيه وكأنه يريد أن يكمل حديث رفيقه بدلا منه، وأخيرًا نطق قائلًا:

- وماذا بعد؟

- عليك أن تعرفني بهم اليوم.

صاح فاسنكا وقد تملكته نشوة من الإلهام:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أركادي! فلنذهب إلى هناك لشرب الشاي! أتعرف ما الذي سوف نفعله؟ أتعرف؟ لن نمكث لديهم حتى ساعة حلول العام الجديد، بل سوف نغادر مبكرًا.

- ذلك يعني ساعتين، لا أكثر ولا أقل!

- ولن أراهم ثانية حتى أنتهي من العمل!

- فاسنكا!

- أركادي!

***

في خلال ثلاث دقائق فقط كان أركادي قد ارتدى ثيابه الاحتفالية بالكامل. في حين اكتفى فاسنكا بتنظيف ملابسه بالفرشاة فقط، حيث إنه لم يكن قد بدل ثيابه بعد من فرط حماسه لإنجاز العمل.

انطلق الاثنان مسرعينِ إلى الشارع، تغمرهما سعادة طاغية. كان الطريق يمتد من ناحية بطرسبورج إلى كولومنا. مضى أركادي إيفانوفيتش يسير بخطوات تفيض خفة وحيوية، حتى يمكن للمرء أن يرى كم تعبر تلك الخطوات عن الفرح الذي يتملكه، وسعادة فاسنكا التي تزداد لحظة بعد الأخرى. ومضى فاسنكا يسير بخطوات أقصر، ولكن دون أن يفقد رصانته. ولم يسبق لأركادي إيفانوفيتش أن شاهده من قبل في مثل هذه الهيئة الوقورة. وفي تلك اللحظة، ازداد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

احترامه له على نحو خاص، وذلك بسبب القصور الحركي المعروف لفاسنكا، والذي لا يزال القارئ لا يعرف عنه شيئًا (كان فاسنكا يسير بخطوات غير متوازنة بعض الشيء)؛ والذي طالما أثار شعورًا عميقًا بالعطف والشفقة في القلب الطيب لأركادي إيفانوفيتش، وقد وقد ازداد الآن شعوره بالمودة العميقة التي شعر بها في تلك اللحظة نحو صديقه، وكان فاسنكا جديرًا بها بالطبع من كافة الجوانب. وبلغ أركادي إيفانوفيتش حدًّا من السعادة كاد أن يدفعه للبكاء، لكنه قاوم رغبته وتمالك رباطة نفسه.

عندما رأى أركادي أن فاسنكا يقترب من السير ناحية شارع فوزنيسينسكي، صاح به:

- إلى أين أنت ذاهب يا فاسنكا؟ الطريق أقرب من هنا!

- اصمت أنت يا أركاشا، اصمت...

- صدقني، فالطريق من هنا أقصر يا فاسنكا..

قال فاسنكا بنبرة خافتة جراء الشعور بالفرح، وكأنه يبوح بسر غامض:

- أتعرف ما أود فعله؟ أريد شراء هدية أُعطيها إلى ليزنكا!

- عن أي هدية تتحدث؟

- بالقرب من هنا يا أخي، عند ناصية ذلك الشارع يقع متجر رائع لمدام "ليرو"!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وماذا يوجد هناك؟

- قبعة صغيرة لمحبوبتي، شاهدت اليوم تلك القبعة البديعة التي لم أر مثيلًا لها في حياتي، وسألت عنها فأخبروني أنها من طراز "مانو ليسو" ((6)Manon Lescaut)، تتدلى منها شرائط رقيقة بلون الكرز، وإذا لم يكن سعرها باهظًا يا أركاشا.. حتى لو كان باهظًا فهي تحفة حقيقية!

- أنت في رأيي تفوق الآن كل الشعراء في العالم يا فاسنكا! فلنذهب!

أسرعا الخطى حتى صارا بداخل المتجر بعد دقيقتين. وجرى الترحيب بهما من قبل سيدة فرنسية ذات عيون سوداء، تتدلى خصلات الشعر المجعدة على صدغيها، وما إن وقع نظرها على الزبونين، حتى اكتست ملامحها على الفور بأمارات البهجة والسعادة مثلهما، بل إنها حتى بدت أكثر سعادة منهما إذا جاز القول. وكان فاسنكا مستعدًّا لتقبيل مدام ليرو من شدة الانفعال.

دار فاسنكا بعينيه يتطلع إلى كل تلك القبعات الجميلة والرائعة، المعلقة فوق حوامل خشبية تتوسط الطاولة الضخمة للمتجر. وهمس بصوت خفيض:

- أركاشا! أترى هذه التحف؟ يا للروعة! يا للجمال! انظر إلى هذه مثلًا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشار فاسنكا إلى قبعة صغيرة آية في الرقة، وهمس لصاحبه:

- أترى هذه؟.. تبدو مثل قطعة البونبون.

لم تكن تلك هي القبعة المنشودة التي أراد شراءها، لأن نظراته مضت بعيدًا نحو الجانب الآخر المقابل، حيث خطفت بصره تلك القبعة البديعة، المعلقة فوق الحامل الخشبي هناك. وألقى بنظراته نحوها يخترقها، وكأنه يخشى أن يختطفها أو يسرقها أحد، أو أن القبعة سوف تحلق بنفسها عاليًا في الهواء كي لا يحصل عليها فاسنكا.

صاح أركادي إيفانوفيتش مشيرًا إلى إحدى القبعات:

- ما رأيك بهذه القبعة؟

قرر فاسنكا أن يمكر بصاحبه ببراءة طفولية وأجابه:

- آه.. إنك تتمتع بذوق رفيع حقًّا يا أركاشا، حتى إن تقديري لك قد ازداد لحسن اختيارك وجمال قبعتك.. ولكن تعال يا أخي وانظر إلى هذه المعلقة هنا.

- أي واحدة تفضلها يا عزيزي؟

- هذه.. انظر بنفسك.

صاح أركادي بنبرة لا تخلو من الشك:

- أتقصد هذه!

وعندما لم يستطع فاسنكا أن يمنع نفسه من اختطافها، قام بنزعها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من فوق الحامل الخشبي، بدا له أن القبعة قد طارت نحوه من تلقاء نفسها فجأة، لشدة فرحتها بهذا المشتري الطيب بعد طول انتظار، وعندما أخذت شرائط الكشكشة والدانتيل تخفق في الهواء، تعالت صيحة انبهار فرحة غير متوقعة من صدر أركادي إيفانوفيتش القوي. حتى إن السيدة ليرو، التي ظلت محتفظة بكامل وقارها، ولم تحاول التباهي بخبرتها التي لا شك فيها وذوقها الرفيع المؤكد، ولم تتدخل طوال الوقت، بل التزمت الصمت في أثناء الاختيار، كافأت فاسنكا بابتسامة عريضة من الاستحسان، وبدا أن كل ما عبرت عنه في ملامحها، ونظراتها وفي تلك الابتسامة، يفصح في الحال عن كلمة "نعم"! لقد أصبت الاختيار الصحيح، وتستحق السعادة التي تنتظرك.

Telegram:@mbooks90

صاح فاسنكا بنبرة تحمل كل الحب إلى القبعة:

- لقد مضت هذه الشقية تغازلنا من داخل ركنها المنعزل، بل إنها تعمدت الاختباء عن أنظارنا.. أليس كذلك يا عزيزتي المخادعة؟

وقام فاسنكا بتقبيل القبعة، أو على الأصح تقبيل الهواء المحيط بها، وذلك خشية أن يلمس جوهرته الثمينة فيترك عليها أثرًا لأصابعه.

أضاف أركادي مبتهجًا دعابة اقتبسها من إحدى الصحف الساخرة التي قرأها في الصباح:

- هذه هي الطريقة التي تتوارى بها الفضيلة والجدارة الحقيقية، فما باليد حيلة في ذلك يا فاسنكا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أحسنت يا أركاشا! نعم، فأنت اليوم تمزح بصورة لاذعة، وأتوقع أنك سوف تثير جنون النساء كما يقال.. يا مدام ليرو، مدام ليرو!

- بماذا تأمر يا سيدي؟

- عزيزتي مدام ليرو!

- نظرت السيدة ليرو إلى أركادي إيفانوفيتش وارتسمت على وجهها ابتسامة انتزعتها من وقارها.

- لن تصدقي كم أعشقك في هذه اللحظة... اسمحي لي أن أُقبِّلك.

وقام فاسنكا بتقبيل صاحبة المتجر.

صار على مدام ليرو في هذه اللحظة استدعاء كل الرصانة والوقار اللتين تتمتع بهما بشكل حاسم، حتى لا يجرحها مثل هذا السلوك الطائش. لكني أؤكد أنها بالضرورة كانت تتمتع أيضًا بكل اللباقة الفطرية وروح التسامح الحقيقية التي استقبلت بها فرحة فاسنكا وحماسه الشديد. فالتمست له العذر، واستطاعت بذكاء شديد، وبرشاقة مدهشة الحفاظ على ثباتها في هذه الحالة! ولكن، هل يمكن لأحد أن يغضب من فاسنكا؟

- كم يبلغ سعرها يا مدام ليرو؟

أجابت وهي تتعافى مما حدث بابتسامة جديدة:

- هذه بخمسة روبلات من الفضة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال أركادي إيفانوفيتش مشيرًا إلى القبعة الأخرى التي اختارها:

- وكم يبلغ سعر هذه يا مدام ليرو؟

- ثمانية روبلات من الفضة.

تدخل فاسنكا وسأل:

- من فضلك يا مدام ليرو! لو سمحت! أخبريني رأيك يا سيدتي، أي واحدة هي الأفضل، الأجمل، الأروع، أي واحدة تليق بك أكثر من الأخرى.

- هذه ثرية بالزخارف، ولكن الأخرى التي اخترتها أكثر رومانسية (بالفرنسية).

- حسنًا، سوف نأخذها!

أخذت مدام ليرو ورقة ناعمة للغاية لفَّت بها القبعة وشبكتها بدبوس، وبدا أن ما تكسوه تلك الورقة بداخلها، قد صار أخف وزنًا مما كان عليه قبل كسوته. أخذ فاسنكا هديته الثمينة وحملها بحرص وهو يتنفس بالكاد، ثم انحنى للسيدة ليرو، وقام بتحيتها بإلقاء مجاملة شديدة الرقة، وغادر المتجر.

صاح فاسنكا مقهقهًا من الضحك:

- أنا المهرج الضحوك يا أركاشا، وُلدت كي أكون مهرجًا!

وأطلق ضحكات عصبية مكتومة، ثم راح يركض حول المارة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتحاشى الاقتراب منهم، ظنًّا منه أنهم بالحتم سوف يحاولون الاصطدام به وسحق قبعته الثمينة!

وبعد مرور دقيقة هتف فاسنكا بنبرة يتخللها رنين مهيب يختلط برقة مطلقة:

- أتعرف يا أركادي؟ أتعرف يا أركاشا؟ أكاد أحلق من شدة السعادة! أنا لم أشعر بمثل هذه السعادة قبلًا!

- عزيزي فاسنكا! كم أنا مسرور لأجلك.

- أعرف يا أركاشا، أعرف أن حبك لي لا حدود له، أعرف ذلك جيدًا، ولكن لا يمكنك أن تشعر حتى ولو بذرة صغيرة مما أشعر به في هذه اللحظة. يكاد قلبي أن يفيض من شدة الفرح، قلبي يفيض به! أركاشا! أظنني لا أستحق كل هذه السعادة! أستطيع سماع هذا الصوت بداخلي يخبرني بذلك، وأشعر به. فما الذي فعلته كي أستحقها؟

واصل فاسنكا كلماته بصوت يخنقه بكاء مكتوم:

- ما الذي فعلته كي تمنحني الدنيا هذه السعادة؟ أخبرني! أنظر إلى كم الناس حولنا.. إلى بحور الدموع والأحزان، والحياة البائسة التي تمضي بلا أفراح! في حين أنا الوحيد من بينهم الذي أحبته تلك الفتاة، أنا دون الآخرين... لكنك سوف تراها بنفسك الآن، وسوف تُقدِّر بنفسك مدى النبل الذي تحمله في قلبها. لقد خرجت إلى الدنيا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في بيئة متواضعة، أما الآن فصرت صاحب وظيفة ودخل مستقل، أي راتب منتظم. كما أنني وُلدت بإعاقة جسدية، تجعل مشيتي غير متزنة بعض الشيء. ولكنها على رغم ذلك أحبتني على حالي. واليوم، لا تتصور كم كان يوليان ماستاكوفيتش لطيفًا، ودودًا، ومهذبًا للغاية معي؛ إنه نادرًا ما يتحدث معي، لكنه جاء وسألني: "كيف حالك اليوم يا فاسنكا؟ (والله هكذا ناداني، باسم التدليل فاسنكا)، ألا تنوي الخروج والاستمتاع في العيد في أثناء العطلة؟"، وضحك بعد ذلك. فأجبته: "هناك عمل ينبغي القيام به يا صاحب السعادة". وفي هذه اللحظة تملكني شعور بالبهجة، فقلت له: "لكن هذه لن يمنع من الاحتفال والمرح قليلًا يا صاحب السعادة"، أقسم لك بالله إن هذا ما قلته. وحينذاك أعطاني المال، ثم اختتم حديثه لي بكلمتين إضافيتين. وقد سالت الدموع من عيني يا أخي، والله إني بكيت من الانفعال، وبدا عليه التأثر أيضًا، فربت على كتفي، وقال: "فلتظل مرهف الحس يا فاسنكا، كما أنت دائمًا، ولتظل عاطفتك جياشة كما هي الآن..".

صمت فاسنكا للحظة. استدار أركادي إيفانوفيتش بعيدًا، فمسح أيضًا بقبضته دمعة سالت على خده.

واصل فاسنكا قائلًا:

- الأهم من ذلك يا أركادي.. والذي لم أخبرك به قط من قبل! عليك أن تعلم يا أركادي أن صداقتك لي هي ما تسعدني في هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدنيا، ولولاك لما استطعت العيش في العالم.. لا، لا، لا تنطق بشيء يا أركاشا! بل دعني أضم يدك في يدي، أعطني يدك كي تباركني... فهي النعمة لي... الهدية... وسوف أمنحك!...

لم ينه فاسنكا كلماته مرة أخرى، لأن أركادي إيفانوفيتش همَّ أن يُلقي بنفسه مباشرة فوق رقبة فاسنكا، ولكن بينما كانا يعبران الشارع، إذا بصوت قرقعة سوط الحوذي يجلجل فوق آذانهم تقريبًا، وهو يحث الحصان الذي يجر العربة المسرعة "هيا أيها الحصان، هيا!". فأسرع كلاهما خائفينِ مفزوعينِ، وركضًا إلى الرصيف مبتعدين عن العربة. كان أركادي إيفانوفيتش سعيدًا بذلك. وقد التمس العذر لفاسنكا عن امتنانه المتدفق باستثناء اللحظة الحالية. وتملكه قدر من الضيق، إذ شعر بأنه لم يفعل سوى القليل لفاسنكا حتى الآن! حتى إنه شعر بالخجل من نفسه عندما بدأ فاسنكا يشكره كل هذا الشكر على هذا القليل! ولكن أركادي إيفانوفيتش فكر بأن حياة كاملة ما زالت ممتدة أمامهما، مما جعله يتنهد بارتياح.

***

كانوا قد حسموا أمرهم تمامًا وقرروا عدم انتظارهما! وما يشهد على هذا أنهم جلسوا يحتسون الشاي! وفي الحقيقة، أحيانًا يكون العجوز أبصر بالأشياء من الشباب، وما بالك بشباب اليوم! فقد ظلت ليزنكا تصر بشدة على أنه لن يأتي: "لن يحضر يا أمي.. فقلبي ينبئني بأنه لن يأتي". وظلت الأم تخبرها أن قلبها يشعر على العكس من ذلك،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وينبئها بأنه سوف يكون هنا بالتأكيد، وبأنه لن يستطيع البقاء في مكانه هادئ البال، فليس لديه عمل يشغله، والمكاتب الرسمية كلها في عطلة اليوم عشية رأس العام الجديد! لكن ليزنكا لم تصدق نفسها على الإطلاق حتى عندما فتحت الباب، ولم تستطع تصديق عينيها، واستقبلتهما وأنفاسها تتلاحق، وقلبها يخفق بشدة من فرط المفاجأة، حتى صارت مثل طائر وقع في فخ الصياد، واكتسى وجهها باللون القرمزي، وأصبح شديد الحمار مثل الكرز، حتى بدت تشبه ثمرته بشكل مذهل.

يا رب السماوات! يا لها من مفاجأة! يا لها من فرحة. وأطلقت صيحة "آه!"، ثم طارت الكلمات من شفتيها! "أيها المخادع! أيها الحبيب!". وألقت بنفسها تحتضن رقبة فاسنكا بيديها.. ولكن، لكم أن تتخيلوا ما أصابها من الدهشة الشديدة، والخجل المفاجئ، عندما شاهدت أركادي إيفانوفيتش واقفًا خلف فاسنكا مباشرةً، كما لو أراد الاختباء خلفه، وقد تملكه بعض الارتباك. وهنا ينبغي الاعترف بأنه كان يفتقر إلى الثقة بالنفس والثبات مع النساء، وتصيبه اللخمة الشديدة في حضورهن، حتى إنه ذات مرة.. ولكننا سوف نتحدث حول هذا الأمر لاحقًا.

ومع ذلك، فلو كنتم مكانه في ذلك الوضع، فلن نجد شيئًا مضحكًا هنا. كان واقفًا في مدخل الشقة، ينتعل حذاءً من المطاط الخفيف، ويرتدي معطفًا بطيات على الظهر، وشريط يلتف حول الخصر من الخلف، يشبه المعاطف الرسمية للجنود والعاملين في الخدمة العامة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويعتمر قبعة من الفراء يتدلى طرفاها فوق الأذنين، والتي أسرع بخلعها، وحول رقبته يلتف بصورة رديئة شال أصفر، عقده من الخلف على نحو قبيح، وذلك كي يعطي انطباعًا أكثر تأثيرًا. كان عليه أن ينزع عنه كل هذا على وجه السرعة، كي يقدم نفسه في هيئة لائقة، لأنه شعر في هذه اللحظة بأنه أكثر شخص في العالم يود تقديم نفسه في أحسن مظهر. لكن هناك فاسنكا المزعج، الذي لا يُطاق، على الرغم من أنه في الوقت نفسه بالطبع هو نفسه فاسنكا الرقيق، طيب القلب، وأخيرًا، صاح فاسنكا المزعج عديم الرحمة: "ليزنكا، ها هو رفيقي أركادي الذي أعرفك به! أتريدين معرفة من يكون؟ إنه صديقي المقرب، هيا ليزنكا عانقيه، قبِّليه، قبليه في وجهه، سوف تتعرفين عليه بشكل أفضل في المستقبل، وحينذاك سوف تُقبِّلينه بنفسك...".

حسنًا.. وماذا بعد؟ أتساءل عما كان على أركادي إيفانوفيتش القيام به وما زالت رقبته يلتف حولها نصف الشال فقط! في الواقع، أشعر أحيانًا بالخجل من حماس فاسنكا المفرط، على رغم أنه نابع من قلب طيب بالطبع، ولكنه حماس أهوج، وسيئ!

أخيرًا دخل كلاهما. كانت العجوز سعيدة على نحو لا يوصف بلقاء أركادي إيفانوفيتش، فقد سمعت الكثير عنه، لكنها لم تكد تعبر عن فرحتها في نصف جملة، حتى قاطعتها صيحة ابتهاج وانبهار تعالت ترن في الغرفة: "آه.. يا رب السماوات!". كانت ليزنكا واقفة أمام قبعتها بعد أن نزعت عنها الورقة الرقيقة التي غلفتها، لتطل عليها الهدية غير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتوقعة، فمضت تتحسسها بيدها برفق وهي تبتسم، ويا لها من ابتسامة صافية بريئة... يا الله، تُرى ما الذي يمكن أن يحدث لها أكثرمن هذا لو أن السيدة ليرو أعطته قبعة أفضل؟

حقًّا، أين يمكنك العثور على قبعة أفضل؟ لقد فاقت كل حدود الجمال! أين يمكنك أن تجد مثيلًا لها؟ أنا أتحدث بجد! حتى إنني أشعر ببعض السخط، ويتملكني الحزن عندما يكشف العشاق عن جحودهم. حسنًا، انظروا أيها السادة واحكموا بأنفسكم، انظروا، فلا يمكن أن يكون هناك أفضل من قبعة كيوبيد هذه! أرجوكم أن تمعنوا النظر... ولكن لا، لا، فقد أخطأت في ظنوني ولا محل لها، حيث إنهم اتفقوا معي في الرأي جميعًا.

ولم تكن شكوكي سوى أوهام مؤقتة، ضباب، مجرد مشاعر ملتهبة. وأنا مستعد أن أغفر لهم، ولكن بشرط أن تنظروا جيدًا... وعذرًا أيها السادة، فما زلت أتحدث بالتفصيل عن هذه القبعة: تول خفيف، شريط عريض بلون الكرز تكسوه الدانتيلا المخرمة، يمر حول أسفل قمة القبعة، ويتدلى من الخلف شريطان، عريضان وطويلان، سوف يسقطان قليلًا أسفل مؤخرة الرأس فوق الرقبة... وينبغي فقط وضع القبعة كلها مائلة بعض الشيء نحو موخرة الرأس. انظروا إليها الآن، وسوف أسألكم رأيكم بعد ذلك.. ماذا بكم؟ أراكم لا تنظرون! ألا تعيرون الأمر اهتماما؟ إنكم تنظرون إلى الناحية الأخرى! ركزوا أنظاركم، وسوف ترون دمعتين كبيرتين مثل لؤلؤتين، تترقرقان بلمح البصر في العينين السوداويتين الفاحمتين، وترتجفان فوق تلك الأهداب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطويلة، ثم تهويان وكأنهما سقطا في الهواء على ذلك النسيج الرقيق الذي صُنعت منه تلك التحفة الفنية لمدام ليرو.

مرة أخرى تملكني شعور بالضيق: فبعد كل شيء، لم تسقط هاتان الدمعتان تأثرًا بتلك القبعة!.. لا! ففي رأيي، ينبغي للمرء تقديم مثل هذا الشيء برصانة وهدوء دون انفعال. وحينئذٍ فقط يمكن تقديرها بصورة حقيقية! غير أنني أعترف لكم أيها السادة، أن المسألة كلها من أجل القبعة!

جلس الجميع - فاسنكا مع ليزنكا، والعجوز مع أركادي إيفانوفيتش، بدأ أركادي إيفانوفيتش الحديث بوقار وحكمة. ويسعدني أن أمنحه حقه من الإنصاف. فلم يكن من المتوقع أن يتحدث على ذلك النحو.

فبعد أن ألقى بضعة كلمات حول فاسنكا، استطاع إدارة دفة الحديث حول يوليان ماستاكوفيتش، المحسن الكريم صاحب الفضل. نعم، لقد تحدث بمهارة وذكاء شديدين، لدرجة أن الحديث امتد فعليًّا لأكثر من ساعة. كان عليكم مشاهدته والانبهار ببراعته، وباللباقة التي وصف بها أركادي إيفانوفيتش بعض ميزات يوليان ماستاكوفيتش، والتي ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بفاسنكا. وفي المقابل، كانت العجوز في غاية الافتتان والإعجاب الصادق: وقد اعترفت بذلك بنفسها، فانتحت بفاسنكا جانبًا عامدة، وهمست له بأن صديقه شاب ودود حلو الحديث، والأهم من ذلك أنه رجل جاد ومحترم. كاد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاسنكا أن ينفجر من الضحك من فرط سعادته بذلك المديح. وتذكر كيف ظل أركاشا صاحب العضلات القوية يتقاذفه لمدة ربع ساعة فوق الفراش!

بعد ذلك غمزت العجوز بعينها إلى فاسنكا، وطلبت منه أن يتبعها بهدوء وحذر إلى الغرفة الأخرى. وينبغي الاعتراف بأنها تصرفت بحماقة بعض الشيء فيما يتعلق بليزنكا: فقد أقدمت على خيانتها، ولكن عن حسن نية بالطبع، وطرأ ببالها أن تكشف له خلسة عن الهدية التي أعدتها ليزنكا لفاسنكا بمناسبة العام الجديد. كانت عبارة عن محفظة نقود مطرزة بالخرز والخيوط الذهبية، ومزينة بالرسومات البديعة: فعلى أحد جوانبها رسم متقن للغاية لغزال يركض كالسهم مثلما في الطبيعة تماما! وعلى الجانب الآخر وجه لأحد مشاهير الجنرالات المعروفين، وكان بدوره مرسومًا على نحو رائع، حتى تكاد ملامحه أن تنبض بالحياة. وهنا لن أتطرق إلى الحديث حول فرحة فاسنكا وتأثره الشديد بالهدية.

في هذه الأثناء، لم يمر الوقت عبثًا في غرفة الضيوف. فقد أقبلت ليزنكا مباشرة نحو أركادي إيفانوفيتش، ثم أمسكت بيديه ومضت تشكره وتُثني عليه، وخمن أركادي إيفانوفيتش أخيرًا أن الأمر يتعلق بأغلى رفيق لديه وهو فاسنكا. وبلغ التأثر بليزنكا قدرًا عميقًا: فقد سمعت أن أركادي إيفانوفيتش هو الصديق الحقيقي الذي لا مثيل له لخطيبها، والذي يحبه كثيرًا ويرعاه بإخلاص، ويوجه له النصح الذي يسعفه في كل خطوة يخطوها، وبأنها حقًّا، ليزنكا، لا يسعها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سوى تقديم الشكر والعرفان له، ولا يمكنها سوى التعبير له عن مشاعر الامتنان نحوه، وفي النهاية تأمل أن يحبها أركادي إيفانوفيتش ولو بنصف القدر الذي يحب به فاسنكا، ثم راحت تسأله عن أحوال فاسنكا، ومدى اعتنائه بصحته، وأبدت بعض المخاوف حول حماسه وانفعالاته المفرطة المميزة لشخصيته، وحول عدم إلمامه الكامل بطبائع البشر وبالحياة العملية، وصرحت بأنها سوف تراقبه من الناحية الدينية بمرور الوقت، وسوف ترعاه وتدلله طوال حياته، وأنها تأمل أخيرًا ألا يفترق عنهما أركادي إيفانوفيتش مستقبلًا، بل ويعيش معهما أيضًا.

وصاحت بانفعال بريء:

- سوف نعيش ثلاثتنا معًا مثل كيان واحد.

في النهاية، حان وقت الرحيل. وبالطبع، دعوهم للبقاء لمدة أطول، لكن فاسنكا أعلن بشكل قاطع استحالة بقائهم أكثر من ذلك. وأكد أركادي إيفانوفيتش على نفس الموقف. وبالطبع سألوا عن سبب إصرارهم على الرحيل، وعلى الفور تم الكشف عن وجود عمل عهد به يوليان ماستاكوفيتش إلى فاسنكا، وهو عمل عاجل وضروري وخطير، ينبغي تقديمه صباح بعد الغد، وأن فاسنكا لم ينته منه بعد، بل وحتى أهمله تمامًا. شهقت الأم بفزع عندما سمعت ذلك، وتملك الانزعاج والخوف من ليزنكا، إلى درجة أنها صارت تدفع فاسنكا للانصراف. وعلى رغم ذلك القلق فإن قبلتها الأخيرة له لم تفقد

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حرارتها على الإطلاق، وعلى رغم أنها كانت أقصر وأسرع، لكنها في الوقت نفسه بدت أكثر وأشد سخونة. وأخيرًا افترقوا، وانطلق الصديقان إلى المنزل.

ما إن خرجا إلى الشارع، حتى بدأ كل منهما في إطلاق انطباعاته. كان من الطبيعي أن تسير الأمور على هذا النحو: فقد وقع أركادي إيفانوفيتش في حالة من الحب، وقع في غرام ليزنكا! ومن يمكن أن يفضي إليه بذلك أفضل من فاسنكا المحظوظ نفسه؟ وهذا ما فعله في الواقع، ولم يخجل من الاعتراف لفاسنكا على الفور بكل شيء. فضحك فاسنكا بشكل هستيري، وتملكته سعادة غامرة، حتى إنه صرح بأن هذا شعور طيب ومفيد، وأن صداقتهم الآن صارت أمتن وأشد. وقال أركادي إيفانوفيتش: "لقد قرأت باطني يا فاسنكا، نعم! فأنا أحبها مثلك، وسوف تصبح ملاكي الحارس، مثلك تمامًا، ثم تنسكب سعادتكما بداخلي، فتدفئ قلبي. سوف تصبح سيدتي يا فاسنكا، سيدتي التي تملك مفتاح سعادتي بين يديها. فلتقودني كما تقودك. نعم، فإن صداقتي لك هي صداقتي لها، فأنتما الآن كيان واحد لا ينفصل بالنسبة إليَّ. فقط سوف يكون لديَّ مخلوقان مثلك بدلًا من مخلوق واحد".

بعد ذلك صمت أركادي من فرط تدفق مشاعره، وشعر فاسنكا بالصدمة في أعماق روحه واهتز وجدانه تأثرًا بكلماته. وفي الحقيقة فهو لم يتوقع أن يعبر أركادي عن مشاعره بمثل هذه الكلمات. فلم يكن أركادي إيفانوفيتش يجيد الكلام بصورة عامة، كما أنه لا يجيد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاسترسال في الأحلام على الإطلاق، وإذا به الآن يستغرق على الفور في أكثر الأحلام بهجة ونضارة، أحلام بألوان قوس قزح!

استمر أركادي يواصل كلامه مرة أخرى:

- سوف أرعاكما وأعتني بكما معًا، أولًا يا فاسنكا، سوف أصبح العراب لجميع أطفالك، لكل واحد منهم، وثانيًا يا فاسنكا، ينبغي لي الاهتمام باحتياجات المستقبل. فأنت بحاجة إلى شراء أثاث جديد، كما تحتاج إلى استئجار شقة أخرى، كي يكون لدينا ثلاث غرف منفصلة، واحدة لي والأخرتان لكما. وعليك أن تعلم يا فاسنكا أنني سوف أسعى من الغد للنظر في الإعلانات المعلقة فوق بوابات المنازل. لا داعي لثلاثة.. فنحن لا نحتاج إلا لغرفتين فقط. وأظنني اليوم يا فاسنكا تفوهت بالكثير من الهراء، فسوف يكون لدينا ما يكفي من المال، فما إن نظرت إلى عينيها، حتى اكتشفت على الفور أن كل شيء سوف يتوفر لدينا، كل شيء من أجلها! آه، سوف نعمل بلا كلل! والآن يا فاسنكا، يمكن المجازفة ودفع خمسة وعشرين روبلًا إيجارًا للشقة. فالشقة يا أخي هي كل شيء! نعم، حجرات جميلة.. تضفي البهجة على ساكنيها، وتصبغ أحلامه بألوان قوس قزح! والأمر الآخر أن ليزنكا سوف تصبح أمينة الصندوق المشترك لدينا: لن نصرف كوبك (5) واحد هباءً! ولن تطأ قدماي الحانة منذ الآن! وإلا فكيف تكون نظرتك نحوي! لن أقربها مهما حدث. كما أن هناك الترقيات والمكافآت التي سوف نحصل عليها، لأننا سوف نكدح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونجتهد في العمل، أوه! سوف نعمل مثل الثيران التي تحرث الأرض!

خفت صوت أركادي إيفانوفيتش من الشعور بالرضى، وقال:

- تصور نفسك، وقد حصلت فجأة ودون سابق إنذار، على مكافأة تصل إلى خمس وعشرين، أو ثلاثين روبلًا! وكلما حصلنا على تلك المكافآت، يمكنك أن تشتري بها تارة قبعة، وتارة شالًا أنيقًا، أو جوارب، ولا بد أن تقوم بنفسها بعقد الشال حول رقبتي.. انظر إلى الشال الذي أضعه، كم هو قبيح ومقزز بلونه الأصفر الباهت، حتى إنه كان سببًا لحرجي وخجلي اليوم! نعم، وأنت بدورك لم تنبهني لهيئتي المزرية يا فاسنكا. فبينما ظهرت أنت متأنقًا، وقفت أنا في هذا اللجام يلتف حول رقبتي... على كل حال ليس هذا لب الحديث! وأريدك أن تعلم أن مهمة شراء الأواني الفضية تقع على عاتقي! فأنا ملزم بتقديم هدية لكما، فهذا أمر يشرفني ومدعاة لفخري!.. فلن يطول انتظاري للحصول على مكافآتي، وهم لن يمنحوها إلى "سكوروخودوف" بدلًا مني بالطبع، وأفترض أن ذلك القلق لن يحتفظ طويلًا بمالي في جيبه... وأنا سوف أشتري لك يا أخي الملاعق الفضية، والسكاكين الجيدة.. ربما لن تكون سكاكين فضية، ولكنها سكاكين من النوع الممتاز، وكذلك صديري، أقصد صديري لنفسي لأنني سوف أكون إشبينكما في العرس! أما أنت فعليك الآن أن تشحذ عزيمتك، فقد حان الوقت كي تشد همتك يا أخي، وسوف أظل أراقبك اليوم وغدًا، واقفًا خلفك طوال الليل بالعصا حتى لا تتكاسل، ولن أتهاون معك في العمل: وأظل أصرخ فيك! هيا أنجز العمل! هيا أنجزه بسرعة يا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخي! وأكرر ذلك مرة أخرى في المساء، وبعد أن تنهي العمل تعم كلانا السعادة، وننغمس في لعب اللوتو(4)!.. سوف نسهر في المساء معًا، أوه، يا للأمسيات الرائعة التي سوف نقضيها! للأسف! كم يؤلمني عجزي عن مساعدتك، وإلا لقمت بالعمل كله، ولكتبت كل شيء بدلًا منك... لماذا يا أخي ليس لدينا نفس خط اليد؟

رد فاسنكا:

- نعم! نعم! ينبغي العمل بسرعة. أعتقد أن الساعة تقترب من الحادية عشرة، وينبغي الشروع في العمل على وجه السرعة... فإلى العمل!

قال فاسنكا هذا، وبعد أن ظل يبتسم طوال الوقت، ثم يحاول بطريقة أو بأخرى مقاطعة حديث رفيقه ببعض الملاحظات الحماسية التي تدفقت محملة بالمشاعر الودية، حتى صار بكلمة واحدة مفعمًا بالحيوية، فجأة تملكه هدوء غريب، وصمت عن الكلام، ثم بدأ يسرع الخطى في مشيته يكاد يركض في الشارع. وبدا كما لو أن فكرة ثقيلة مثل كتلة ثلجية، قد سقطت فوق رأسه المشتعل فجأة، وصارت تعتصر قلبه بالكامل.

بدأ القلق يتسلل إلى أركادي إيفانوفيتش لما لمسه من حال صاحبه، خاصة إنه لم يتلق أي إجابات تقريبًا من فاسنكا على أسئلته المتتالية، ولم يرد عليه إلا بكلمة أو كلمتين، وأحيانًا يكتفي بإيماءات التعجب، وغالبًا ما كانت ردوده لا تمت بصلة على الإطلاق بما يقوله أركادي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاح أركادي أخيرًا بعد أن أدركه في الشارع بالكاد:

- ماذا بك يا فاسنكا؟ هل استبد بك القلق إلى هذه الدرجة؟

أجاب فاسيا بنبرة لا تخلو من الضيق:

- آه يا أخي، وكفاك ثرثرة الآن!...

قاطعه أركادي قائلًا:

- لا تحبط نفسك يا فاسنكا، كفاك قلقًا، لقد رأيتك من قبل وأنت تكتب أكثر بكثير في وقت أقل... أنت لا تعرف قدر نفسك! فأنت موهوب بالفطرة! وفي الحالات القصوى، يمكنك الكتابة بسرعة أكثر، وفي كل الأحوال فهم لن يقوموا بنقل ما تنسخه إلى المطبعة الحجرية.. سوف يكون لديك ما يكفي من الوقت!.. ولو بقيت مضطربًا ومشتتًا على هذا الحال، فإن العمل سوف يصبح أكثر صعوبة..

لم يرد فاسنكا، بل تمتم بكلمات غير مفهومة خرجت من أسفل أنفه، ثم أسرع كلاهما في الطريق إلى البيت وهما في حالة مؤكدة من القلق والاضطراب.

جلس فاسنكا على الفور منكبًّا أمام أوراقه. أما أركادي إيفانوفيتش فقد خف قلقه والتزم الصمت، ثم قام بخلع ثيابه بهدوء مستلقيًا على الفراش، دون أن يحول بصره عن فاسنكا. وشعر بنوع من الرعب يتملك صاحبه. وأخذ يتطلع إلى وجه فاسنكا الشاحب، وعينيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المشتعلتين، وإلى ذلك القلق الظاهر في كل حركة يقوم بها. وقال لنفسه "تُرى ماذا ألَمَّ به؟ حتى إن يداه صارت ترتجفان... يا للتعاسة! يبدو أن حدسي كان صوابًا، ربما أنصحه بالنوم لمدة ساعتين فقط، ولو حتى كي يزيل التوتر والانفعال عن نفسه".

كان فاسنكا قد أنهى كتابة صفحة لتوه، ورفع عينيه، فوقع نظره على أركادي دون قصد، وعلى الفور غض بصره، وأمسك بريشته ثانية.

فجأة، بدأ أركادي إيفانوفيتش في الحديث:

- اسمع يا فاسنكا، أليس من الأفضل لك أن تغفو قليلًا؟ انظر إلى نفسك، فأنت محموم تمامًا..

رمق فاسنكا أركادي بنظرة ضيق لا تخلو من الغضب ولم يجب بشيء.

- استمع لي يا فاسنكا، ما هذا الذي تفعله بنفسك؟.. أجبني يا فاسنكا.

رد فاسنكا بهدوء:

- ما قولك لو شربت قدحًا من الشاي يا أركادي؟

- ما هذا الذي تقوله؟ ولماذا؟

- ليمنحني بعض النشاط، فأنا لا أريد النوم، ولن أنام! سوف أنتهي من كتابة كل شيء، ولو أخذت قسطًا قليلًا من الراحة الآن، مع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قدح من الشاي، فسوف تمر هذه الحالة العصيبة وأستعيد حيويتي.

- حسنا يا أخي فاسنكا، رائع! هذا بالضبط ما أردت أن أقترحه عليك بنفسي، حتى إني أتساءل، كيف لم تطرأ هذه الفكرة ببالي على الإطلاق؟ ولكن عليك أن تعلم، أن "مافرا" لن تستيقظ، ولا يمكن إيقاظها مهما كانت الأسباب.

- نعم.

صاح أركادي إيفانوفيتش وهو يقفز من فوق الفراش حافي القدمين:

- سوف أضع السماور(3) بنفسي، فهذه ليست أول مرة أعد فيها الشاي.. فأنا خبير في ذلك.

ركض أركادي إيفانوفيتش إلى المطبخ، وبدأ يقفز حول السماور ويثير ضجيجًا. في حين انكب فاسنكا على الكتابة في أثناء ذلك. وارتدى أركادي إيفانوفيتش ملابسه وركض مسرعًا إلى المخبز، حتى يتمكن فاسنكا من تناول بعض الطعام في جلسته طوال الليل. وبعد مرور ربع الساعة، كان السماور جاهزًا فوق الطاولة. وبدأ الاثنان في شرب الشاي، لكن الحوار بينهما لم يمض على ما يرام. بدا فاسنكا تائهًا مشتتًا. وقال فجأة وكأنه عدل عن رأيه:

- كما ترى، ينبغي الذهاب غدًا إلى المكتب لتقديم التهنئة بالعام الجديد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا، ليس عليك الذهاب على الإطلاق.

أجاب فاسنكا بحسم:

- لا يا أخي، هذا لا يجوز.. لا يجوز.

- لا تشغل بالك بهذا الأمر، فسوف أقوم نيابة عنك بالتوقيع على عبارات التهاني عند الجميع، أما أنت فتظل تعمل غدًا. واليوم تجلس للعمل حتى الساعة الخامسة كما قلت لك، ثم تنام بعد ذلك، وإلا فكيف ستبدو حالتك غدًا؟ وكيف يمكنك الاستمرار بلا نوم؟ وأنا سوف أوقظك في تمام الثامنة.

رد فاسنكا بنبرة تردد وقلق:

- وهل من اللائق أن توقع بدلًا مني؟

- هذا أفضل ما يمكن القيام به، فالجميع يفعل الأمر نفسه.

- أصارحك بأني أخشى القيام بهذا الأمر.

- ماذا بك؟ لا يوجد ما تخشاه أبدًا.

- ربما لو كان أحد آخر غير يوليان ماستاكوفيتش لوافقتك على الفكرة، إنه يا أركاشا صاحب الفضل، وأخشى أن يلاحظ توقيعي المختلف.

- كيف يلاحظ؟ والله إن تفكيرك لغريب حقًّا يا فاسنكا! كيف يمكنه أن يعرف ذلك؟.. أنا أعرف جيدًا كيف تكتب اسمك،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويمكنني تقليد توقيعك بنفس استدارة حروفه على نحو مماثل تمامًا، بحيث لا يستطيع أحد معرفة ذلك، فماذا بك؟ كفاك ظنونًا لا محل لها، وأؤكد لك أن أحدًا لن يلاحظ شيئًا مما يدور برأسك.

لم يجب فاسنكا بشيء، وشرب ما بقي من قدحه على عجل... ثم هز رأسه في شك.

- فاسنكا يا عزيزي! المهم أن ننجح في إنجاز العمل! فاسنكا! ماذا ألمَّ بك؟ لقد صرت تخيفني الآن! أتعلم، أنا لن أذهب إلى الفراش الآن، فاسنكا، لن أنام. أرني، هل بقي أمامك الكثير من العمل؟

ألقى فاسنكا نظرة إلى أركادي إيفانوفيتش جعلت قلبه ينقبض وأخرست لسانه عن النطق.

- فاسنكا! ماذا أصابك؟ ماذا حل بك؟ ولماذا تُحدق بهذه النظرة الغريبة؟

- أركادي، سوف أذهب غدا لتهنئة يوليان ماستاكوفيتش بنفسي.

أجابه أركادي بترقب قلق:

- حسنًا، فلتفعل ما يحلو لك.

وقال هو يلتهم فاسنكا بعينيه:

- اسمع يا فاسنكا، ما عليك سوى أن تسرع في الكتابة، وأقسم لك بالله إنني أسديك نصيحة صادقة ليس بها أي سوء! كم مرة أخبرك يوليان ماستاكوفيتش بنفسه أن أكثر ما يحبه في ريشتك هو الوضوح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والدقة فقط! والخلاصة أنه يختلف عن "سكورو بلوخين" الذي يحب أن يكون الخط واضحًا وجميلًا في الوقت نفسه، مثل النماذج المطبوعة الجميلة، وذلك كي يأخذها بعد ذلك خلسة بطريقة أو بأخرى، ويحملها إلى أطفاله في البيت للتدرب على تحسين الخط، لأن ذلك الأحمق لا يستطيع شراء نماذج التدريبات المطبوعة! أما يوليان ماستاكوفيتش فهو لا يتحدث ولا يطالب إلا بوضوح الخط والدقة في الكتابة! الوضوح فقط.. فماذا تريد؟ أخبرني يا فاسنكا، فأنا حقًّا لا أعرف كيف أتحدث معك... حتى صار الخوف يتملكني لحالك... ويقتلني كل هذا الحزن والذعر الذي أراه بداخلك.

تهاوى فاسنكا على كرسيه منهكًا وقد خارت قواه، وقال:

- لا تقلق فإني بخير، لا تقلق.

انزعج أركادي وهبَّ واقفًا، وصاح:

- فاسنكا! فاسنكا! أتريد بعض الماء؟

قال فاسنكا وهو يضغط على يد صاحبه:

- اطمئن يا أركادي، فليس بي شيء، مجرد موجة من الحزن عصفت بي فجأة ولا أدري سببًا لها، دعنا نتحدث حول موضوع آخر، ولا تحدثني عن العمل.

- أستحلفك بالله أن تهدأ يا فاسنكا.. تمالك نفسك، فسوف تنجز العمل، والله سوف تنتهي منه! وبافتراض حتى إنك لم تستطع، فما هي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصيبة هنا؟ هل هي جريمة شنعاء؟

- أركادي!

صاح فاسنكا وهو يتطلع إلى صديقه بنظرة تحمل العديد من المعاني المختلطة، لدرجة جعلت أركادي يشعر بخوف غير مسبوق، لأنه لم يشاهد فاسنكا قط من قبل نهبًا لكل هذا القلق الرهيب. وأكمل فاسنكا حديثه:

- لو أنني كنت بمفردي في الحياة كالسابق... لا! أنا لا أقصد قول ذلك، بل أريد أن أقول لك كل شيء، وأبوح لك بما يختلج في صدري كصديق... ولكن، ما الداعي لإزعاجك؟ فكما ترى يا أركادي، هناك بعض الناس يحصلون على الكثير في الحياة، والبعض الآخر لا يحصل إلا على اليسير والبسيط من العمل، مثلي. ولنفترض أنهم يطالبونك بالتعبير عن الامتنان والعرفان، وعجزت عن ذلك، فماذا تفعل؟

- فاسنكا! أنا لا أفهمك بشكل قاطع!

تابع فاسنكا كلامه بصوت خفيض كما لو كان يحدث نفسه:

- أنا لم أكن جاحدًا قط، ولكن إن لم أكن قادرًا على التعبير عن كل ما أشعر به، فسوف يبدو الأمر كما لو أنني.. أتفهمني يا أركادي؟ سيبدو الأمر وكأنني ناكر للجميل بالفعل، وهذا الأمر يقتلني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما هذا العبث الذي تتحدث عنه؟! هل ترى حقًّا أن امتنانك يتمثل في تقديم منسوختك في الموعد المحدد؟ فكر فيما تقوله يا فاسنكا، ما هذا الذي تتحدث عنه؟ هل يُعقل أن التعبير عن عرفانك يتلخص في هذا الأمر؟

صمت فاسنكا فجأة محدقًا بعينيه إلى أركادي، كما لو أن حجة صاحبه غير المتوقعة قد بددت كل الشكوك، حتى إن الابتسامة قد كست وجهه، لكنه سرعان ما عاد إلى شروده السابق. ورأى أركادي أن هذه الابتسامة قد أزالت كل المخاوف، وأن التفكير الشارد الذي أعقبها وظهر ثانية، دليل على الإصرار لفعل شيء أفضل، فشعر بالسعادة والرضى.

قال فاسنكا:

- أوافقك الرأي يا أخي أركاشا، وعندما تستيقظ ألق نظرة عليَّ، فسوف تحل المصيبة على رأسي لو أنني غفوت، والآن سوف أنكب على العمل... أركاشا!

- ماذا؟

- لا شيء، لا شيء.. إنما فقط أردت...

جلس فاسنكا صامتًا، واستلقى أركادي. لم ينطق أحدهما بكلمة واحدة ولا حتى عن سكان حي كولومنا. ربما شعر كلاهما بالذنب قليلًا، وبندم لن يفضي إلى شيء. وسرعان ما راح أركادي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إيفانوفيتش في النوم، بعد أن استبد به القلق حول فاسنكا. واستيقظ في تمام الثامنة صباحًا، فتملكته دهشة شديدة لاستغراقه في هذا النوم العميق.

ورأى فاسكا نائمًا على كرسيه، ممسكًا ريشة الكتابة بيده، وأمامه شمعة شاحبة منهكة قد احترقت عن آخرها. في حين كانت مافرا في المطبخ، مشغولة بتحضير السماور.

صاح أركادي بلهجة خوف مرتعشة:

- فاسنكا، فاسنكا، متى نمتِ؟

فتح فاسنكا عينيه وقفز من فوق كرسيه، وقال:

- آخ.. كيف رحت في النوم وأنا في هذا الوضع؟

وانكب في الحال على أوراقه يتفحصها. كان كل شيء على ما يرام، ولم يتساقط عليها شيء من الحبر، ولا قطرات من شحم الشمعة التي ذابت تمامًا.

صاح فاسنكا بعد أن اطمئن على أوراقه:

- أظنني نمت في السادسة صباحًا.. وكم كان البرد شديدًا في الليل! فلنشرب بعض الشاي، ثم أعود مرة أخرى.

- هل استعدت حيويتك؟

- نعم، نعم، فأنا الآن في حالة طيبة، طيبة جدًّا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كل عام جديد وأنت بخير دائما يا أخي العزيز فاسنكا!

- أهلا بك يا أخي، أهلا بك.. كل عام جديد وأنت طيب أيضًا..

تعانقا الاثنان، وكانت ذقن فاسنكا ترتجف وعيناه تترقرقان بالدموع، في حين ظل أركادي إيفانوفيتش صامتًا، وشعور بالمرارة يعتصره، ثم احتسيا الشاي على عجل.

- أركادي! لقد قررت الذهاب إلى يوليان ماستاكوفيتش بنفسي.

- لماذا؟ أؤكد لك أنه لن يلاحظ شيئًا.

- لكن ضميري يعذبني يا أخي!

- إنه يدرك أنك تجلس من أجله منهمكًا في العمل، وانك تقتل نفسك حرفيًّا من أجله...! وكما أخبرتك يا أخي، سوف أذهب إلى هناك.

قال فاسنكا:

- تذهب إلى أين؟

- إلى أرتيميفيتش، وأقوم بتهنئتهم عني وعنك.

- حسنًا يا عزيزي، يا صديقي الغالي!! سوف أبقى هنا، اتفقنا، وأرى أن فكرتك جيدة، فأنا بالفعل سوف أظل هنا من أجل العمل، ولن أضيع الوقت في الكسل والخمول! ولكن.. انتظر لحظة، فسوف أكتب رسالة فورًا تأخذها معك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هيا اكتب، اكتب يا أخي، فما زال لدينا ما يكفي من الوقت، عندما أغتسل وأحلق، وأنظف معطفي. واطمئن يا أخي فاسنكا، فسوف ننعم معًا بالرضى والسعادة! هيا عانقني.

- آخ! ليتك تكون محقًّا يا صديقي!

تردد فوق الدرج بجوار الباب صوت طفولي يسأل:

- هل السيد شومكوف يعيش هنا؟

ارتفع صوت مافرا تجيب وهي تدعو الضيف للدخول:

- هنا أيها العزيز، نعم.. هنا.

صاح فاسنكا بصوتٍ عالٍ، وهو يقفز من كرسيه مندفعًا إلى المدخل:

- ماذا هناك؟ من هناك؟ أهذا أنت يا بيتنكا(2)؟

وقف صبي جميل الطلعة في العاشرة، ذو شعر مجعد، وقال:

- فاسيلي بتروفيتش، أختي تبعث لك بتحياتها، وأمي أيضًا، كما كلفتني الأخت بتقبيلك نيابة عنها.

رفع فاسنكا الرسول في الهواء وطبع قُبلة طويلة معسولة وحارة فوق شفتيه، اللتين كانتا تشبه شفتي ليزنكا بصورة مذهلة. وقال:

- هيا، عليك أن تُقبله أنت الآخر يا أركادي..

ناول فاسنكا بيتنكا، دون أن تلمس قدماه الأرض، إلى أركادي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إيفانوفيتش الذى احتضنه بقوة ورِقة في الوقت نفسه بين ذراعيه المفتولتين.

- ألا تريد شرب قدح من الشاي يا عزيزي؟

شكرًا جزيلًا، لقد شربنا الشاي بالفعل! استيقظنا اليوم مبكرًا. وذهبت الأسرة إلى الكنيسة. وبعد ذلك ظلت أختي تمشط شعري وتجعده مدة ساعتين، وقامت بدهنه بالفازلين المعطر، وغسلتني، ورتَّقت سروالي، لأنني مزقته أمس مع ساشا في الشارع، وذلك عندما كنا نلعب ونتقاذف كرات الثلج...

- حسنًا، حسنًا، وماذا جرى بعد ذلك؟

- بعد ذلك، ألبستني وأصلحت هندامي كي أجيء إليكم، ثم عطرتني وأمطرتني بالقبلات، وقالت: "اذهب إلى فاسنكا، وقم بتهنئته، واطمئن على حالهما، وإن كان قد نال نومًا مريحًا هادئًا، آه، هناك شيء آخر.. وهو أن أسألك عن.. عن.. تذكرت.. نعم! أن أسألك هل أنجزت العمل الذي قلت أمس... إنه ربما... انتظر.. لقد كتبت ما قالته..".

وأخرج الصبيّ قصاصة من جيبه، وأخذ يقرأ منها.

- نعم! العمل الذي قلقت بشأنه.

- سوف أنجزه بالتأكيد! سوف أنجزه! أخبرها بذلك، أقسم بشرفي إنني سوف أنتهي منه حتمًا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- آخ! هناك شيء آخر كدت أنساه، فقد أرسلت إليك أختي رسالة وهدية!

- يا الله!.. آه يا عزيزي! أين هما؟.. أين..؟ أهذه هي؟.. انظر يا أخي أركاشا.. انظر ما كتبته لي، الحبيبة الغالية! أتعرف، أمس شاهدت المحفظة التي أحضرتها من أجلي، ولم يكتمل تطريزها، ولهذا فهي تقول في رسالتها، أهديك خصلة من شعري حتى أرسل لك الهدية الأخرى. يا للروعة! انظر يا أخي، انظر!

وقف فاسنكا منفعلًا من شدة الفرح، وهو يكشف لأركادي إيفانوفيتش عن خصلة من الشعر الكثيف، الأكثر سوادًا في الضوء، ثم قام بتقبيل الخصلة والرسالة بحرارة، ودسهما في جيبه الجانبي القريب إلى قلبه.

قال أركادي إيفانوفيتش بلهجة حاسمة:

- فاسنكا! سوف أقدم طلبًا ليقلدوك وسامًا لحصولك على هذا الشعر!

قال الصبيُّ بعد أن فكر فيما يقوله كي ينهي حديثه:

- سوف يكون لدينا في الغد لحم عجل مشوي ومخ أيضًا. ماما تريد خبز البسكويت... ولكن لن يكون لدينا عصيدة القمح.

صاح أركادي إيفانوفيتش بلهجة فرحة:

- يا لك من صبيّ رائع، وأنت يا فاسنكا أسعد البشر حظًّا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنهى الصبيّ شرب الشاي، وتلقى الرسالة من فاسنكا، ومعها ألف قبلة وقبلة، ثم خرج سعيدًا مرح المزاج كما كان قبلًا.

قال أركادي إيفانوفيتش مبتهجًا:

- حسنا يا أخي أترى كيف تسير الأمور على نحو طيب؟ كل شيء يمضي نحو الأفضل، فلا تحمل همًّا، ولا تكتئب! بل إلى الأمام! وأنجز العمل يا فاسنكا، أنجزه! سوف أعود إلى المنزل في الثانية، والآن سأذهب إليهم، ثم أعرج إلى يوليان ماستاكوفيتش.

قال فاسنكا بلهجة المغلوب على أمره:

- حسنًا، وداعًا يا أخي، وداعًا... آه.. لو كان باستطاعتي فقط!.. حسنًا، حسنا، هيا انطلق، أما أنا يا أخي، فلن أذهب إلى يوليان ماستاكوفيتش بالتأكيد.

Telegram:@mbooks90

- وداعًا.

- انتظر يا أخي.. انتظر. أخبرهم... قل لهم، كل ما يخطر ببالك، وقبلها من أجلي... وسوف تحكي لي لاحقًا يا أخي.. سوف تخبرني بكل شيء فيما بعد.

- اطمئن، فسوف تمضي الأمور على ما يرام، وأنا أعلم السبب فيما أصابك، إنها السعادة التي هزت كيانك! إنها المفاجأة التي لم تتوقعها، فأنت لم تكن على طبيعتك منذ أمس، لأن روحك لم تهدأ بعد، ولم تنفض عنك انطباعات أمس بعد. وها هو الأمر قد انتهى! فلتتعافى يا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عزيزي فاسنكا وتسترد حيويتك! مع السلامة!

افترق الصديقان أخيرًا. وظل أركادي إيفانوفيتش طوال الصباح شارد الذهن يفكر في فاسنكا فقط. كان يعرف طابعه الضعيف المرهف. وقال لنفسه: "أنا لست مخطئًا بالتأكيد! نعم، إنها كل تلك السعادة هي التي هزت كيانه، يا الله! وقد تملكتني مشاعر الحزن والكآبة أيضًا. يا للإنسان القادر على خلق المآسي من لا شيء! ويا لها من حمى أصابته! آه.. ينبغي إنقاذه من هذه الحالة! ينبغي إنقاذه!".

دارت تلك الأفكار برأس أركادي، في حين لم يلاحظ هو نفسه أن همومًا عائلية صغيرة وتافهة في جوهرها، قد تضخمت في قلبه حتى بدت له من المِحن العصيبة.

في الساعة الحادية عشرة فقط، دخل حجرة استقبال يوليان ماستاكوفيتش، وذلك كي يلحق اسمه المتواضع ضمن عمود طويل من أسماء الشخصيات المرموقة من الذين وقعوا بصفحة كاملة فاضت بحبر التوقيعات. ولكن كم كانت دهشته عندما لاح أمامه التوقيع الخاص بفاسنكا شومكوف! فتملكه الذهول وفكر: "ماذا حدث له"؟ وبعد أن كان أركادي إيفانوفيتش مفعمًا بالأمل منذ فترة قصيرة، خرج ذاهلًا منزعجًا. إذًا، ها هي المأساة وقد أوشك حدوثها بالفعل. ولكن ترى ما طبيعتها؟ وأين سوف تقع؟

وصل إلى كولومنا تدور في رأسه الأفكار القاتمة. كان شارد الذهن في البداية، ولكن بعد حديثه مع ليزنكا، خرج والدموع تنهمر من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عينيه، لأن خوفًا حقيقيًّا على فاسنكا قد تملك منه. فانطلق يركض نحو المنزل، وإذا به يصطدم على نهر نيفا، بصاحبه شومكوف وجهًا لوجه، والذي كان يركض بدوره.

صاح أركادي إيفانوفيتش.

- إلى أين أنت ذاهب؟

توقف فاسنكا كما لو تم القبض عليه متلبسًا بارتكاب إحدى الجرائم. وقال متلعثمًا:

- أنا يا أخي.. مجرد.. مجرد خرجت.. كي أتجول لبعض الوقت.

- ألم يمكنك مقاومة الرغبة في الذهاب إلى كولومنا؟ آه يا فاسنكا، فاسنكا! حسنًا، ولماذا ذهبت إلى يوليان ماستاكوفيتش؟

لم يجب فاسنكا على الفور، ثم لوح بيده، وقال:

- أركادي! أنا لا أعرف ما الذي يحدث لي! أنا...

- كفى يا فاسنكا.. لا تقل شيئًا! لأنني أعرف ما الذي أصابك. تمالك نفسك وانفض عنك قلقك! فأنت منذ أمس مضطرب مشوش! فكر في كيفية التخلص من هذا الاضطراب! فالجميع يحبونك، والجميع يريدون صحبتك، وعملك يتقدم للأمام، وسوف تنتفي منه.. أؤكد لك أنك سوف تنجزه، فأنا أعلم ذلك، وما يدور في عقلك مجرد أوهام ونوع من المخاوف لا أساس لها.

- لا تقلق.. اطمئن ولا تحمل همًّا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل تتذكر يا فاسنكا؟ هل تتذكر عندما جرى معك نفس الشيء؟ حدث ذلك عندما حصلت على الوظيفة، ومن شدة شعورك بالسعادة والامتنان، تصاعدت غيرتك على العمل، فأفسدت عملك لمدة أسبوع من شدة خشيتك وحرصك على القيام به في أحسن حال، وها هو نفس الشيء يتكرر معك الآن.

- نعم، نعم يا أركادي، ولو أن الأمر يختلف الآن، يختلف تمامًا.

- ما الذي تقوله؟ كيف لا يختلف؟ الرحمة يا صديقي! ربما أن هذا العمل لا يتطلب العجلة على الإطلاق، في حين تقوم أنت بقتل نفسك من أجله.

- حسنًا، حسنًا، أنا فقط كنت أقوم بواجبي المطلوب مني.. فلنذهب إلى البيت الآن.

- ما الذي تقوله؟ أتريد العودة إلى البيت دون الذهاب إليهم؟

- لا يا أخي، لا أريد الذهاب إليهم، فلا يمكنني الظهور أمامهم بهيئتي المزرية.. لقد بدلت رأيي. فأنا لم أستطع البقاء في البيت بدونك، وبما أنك صرت معي الآن، فسوف أجلس وأنكب على الكتابة. هيا.. هيا إلى البيت!

سار الاثنان في صمت لفترة، ثم أخذ فاسنكا يسرع الخطى.

قال أركادي إيفانوفيتش:

- لماذا لم تسألني عن أحوالهم؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- آه.. نعم يا أركاشا.. كيف حالهم؟

- فاسنكا، وكأني أرى شخصًا آخر غيرك! ماذا بك؟

قال فاسنكا بنبرة رجاء كي لا يطلب منه تفسيرًا لحالته:

- لا تقلق، فلا شيء بي، لا شيء.. هيا احكِ لي كل التفاصيل يا أركاشا!

تنهد أركادي إيفانوفيتش. لقد ترسخ شعوره بالحيرة والاضطراب وهو يتطلع إلى فاسنكا.

انتعش فاسنكا لسماعه ما جرى في كولومنا. حتى إنه تبادل الحديث مع صاحبه، ثم تناولا الغداء. وكانت العجوز قد ملأت جيوب أركادي إيفانوفيتش بالبسكويت، واستمتع الصديقان بتناوله في مرح. وبعد انتهاء العشاء، وعد فاسنكا بأن يستغرق في النوم حتى يتمكن من مواصلة الجلوس والعمل طوال الليل. وذهب إلى الفراش بالفعل. وفي الصباح، جاء أحد المعارف الذين لا يمكن رفض دعوتهم على الإطلاق، ودعا أركادي إيفانوفيتش لتناول الشاي. وافترق الصديقان. وقرر أركادي العودة في أقرب وقت ممكن، وألا يطول غيابه عن الساعة الثامنة.

بدت له الساعات الثلاثة التي قضاها خارج البيت وكأنها ثلاث سنوات. وأخيرًا استطاع التملص والعودة إلى فاسنكا. كان الظلام يسود أرجاء الغرفة عندما دخلها. ولم يكن فاسنكا في المنزل. وعندما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سأل مافرا عنه، أجابته بأنه كتب كل شيء ولم ينل شيئًا من النوم، ثم أخذ يذرع أرجاء الغرفة، ومنذ ساعة غادر قائلًا إنه سوف يعود بعد نصف الساعة، واختتمت مافرا روايتها بأنه طلب أن تبلغه قبل خروجه بالتالي: "عندما يأتي أركادي إيفانوفيتش، أخبريه أيتها العجوز، إنني خرجت في نزهة على الأقدام"، وكرر طلبه ثلاث أو أربع مرات.

فكر أركادي إيفانوفيتش وهو يهز رأسه "لا بد أنه ذهب إلى عائلة أرتيميف".

بعد دقيقة قفز منفعلًا ومنتعشًا بالأمل. وفكر في نفسه "لقد أنجز فاسنكا العمل كله ببساطة، وهذا كل شيء.. ولم يتحمل البقاء بالبيت، فأسرع إلى هناك.. ولكن.. لا! لو صح هذا الأمر لانتظر عودتي... فلأرى ما لديه هناك"!

أشعل شمعة، واندفع في لهفة إلى طاولة الكتابة التي يجلس إليها فاسنكا: كان العمل يسير على ما يرام، وبدا أنه أوشك على النهاية. وعندما شرع أركادي إيفانوفيتش في القيام بالمزيد من التحقق، دخل فاسنكا فجأة... وصاح بصوت مرتجف من الخوف:

- آخ! أأنت هنا؟

ظل أركادي إيفانوفيتش صامتًا. فقد خشي أن يسأل فاسنكا، الذي بدأ في فرز الأوراق بصمت خافضًا بصره. وأخيرًا التقت أنظارهما. كانت نظرة فاسنكا ممتلئة بالرجاء والتوسل المرير، حتى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جعلت أركادي ينتفض عندما اصطدمت عيناه بها. وارتجف قلبه وفاض عطفًا وشفقة.

صاح أركادي مسرعًا إليه يضمه بين ذراعيه:

- فاسنكا يا أخي العزيز.. ماذا أصابك؟ ماذا حل بك؟ اشرح لي فأنا لا أفهمك ولا أدرك سببًا لمعاناتك وعذابك.. ماذا يدور بداخلك؟ احك لي ولا تكتم شيئًا عني.. فلا يمكن أن السبب هو هذا.

ضغط فاسنكا جسده إليه، ولم يستطع نطق كلمة واحدة. وقد انقبضت روحه تمامًا. وقال أركادي:

- كفى فاسنكا.. كفى! هل تريد قتل نفسك في النهاية؟ ما هذا؟ أنا لا أفهمك، افتح لي قلبك واكشف لي آلامه التي تضنيك.. انظر إليَّ.. فأنا هنا من أجلك... يا الله.. يا الله!

مضى أركادي يتجول في الغرفة ويلتقط تحت ذراعيه كل ما تقع عليه عيناه، وكأنه يبحث في لهفة عن دواء لفاسنكا، وقال:

- غدا، سوف أذهب بنفسي إلى يوليان ماستاكوفيتش بدلًا منك، وسوف أرجوه، وأتوسل إليه أن يمنحك مهلة ليوم آخر. وسوف أشرح له كل شيء، كل شيء، لو أن هذا الأمر فقط هو ما يعذبك على هذا النحو.

وقف فاسنكا بالكاد ساكنًا، وصاح وقد امتُقع وجه وصار أبيض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلون الجدار:

- ليحفظك الله من كل سوء.

- فاسنكا! فاسنكا!

ثاب فاسنكا إلى رشده. ارتجفت شفتاه. كان يريد النطق بشيء ما، لكنه فقط شد على يد أركادي بحركة متشنجة في صمت... كانت يداه باردتين. وقف أركادي أمامه ممتلئًا بالأمل الحزين المؤلم. رفع فاسنكا عينيه إليه مرة أخرى.

- فاسنكا! بارك الله فيك يا فاسنكا! لقد مزقت قلبي يا صديقي العزيز الغالي.

تدفقت الدموع من عيني فاسنكا مثل ندف الثلج الشفافة. ألقى بنفسه على صدر أركادي. وقال:

- لقد خدعتك يا أركادي! خدعتك. اغفر لي اغفر! لقد خنت صداقتك...

سأل أركادي وتملكه ذعر شديد:

- ماذا؟ ماذا تقول يا فاسنكا؟ ما الذي تعنيه؟

- خدعتك بهذا..

قام فاسنكا بإيماءة يائسة، بإلقاء ستة دفاتر سميكة من الدرج الموجود على الطاولة، على غرار تلك التي كان ينسخها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما كل هذه الأوراق؟

- هذا هو العمل الذي عليَّ إنجازه لتسليمه بعد الغد، وحتى الآن لم أنته حتى من كتابة رُبعه! وأرجوك لا تسأل، لا تسألني عن كيفية حدوث ذلك!

تنهد فاسنكا مواصلًا حديثه العفويّ عما يعذبه:

- أركادي يا صديقي! أنا نفسي لا أعرف ما يحدث لي الآن! يبدو الأمر كما لو أنني أفقت من حلم. لقد ضيعت ثلاثة أسابيع كاملة هباءً.. لقد واصلت... الذهاب إليها... في حين قلبي يؤلمني، ويعذبني... خوفًا من المجهول... ولم أستطع الكتابة.. حتى إنها لم ترد ببالي.. والآن فقط، عندما أقبلت نحوي السعادة، أفقت من حلمي.

بدأ أركادي إيفانوفيتش حديثه بحزم:

- فاسنكا! فاسنكا! سوف أنقذك. فأنا الآن صرت أدرك كل هذا. وهذا أمر جاد وليس مزحة على الإطلاق. وسوف أنقذك منه! اسمع، اسمعني جيدًا: غدًا سأذهب إلى يوليان ماستاكوفيتش... لا تهز رأسك، بل أصغ لما أقوله! سوف أخبره بكل شيء كما جرى في الواقع.. وأرجوك أن تدعني أفعل هذا... وسوف أشرح له... سأفعل كل ما يمكن القيام به! وأخبره كيف تقتَل نفسك، وكيف تُعاني وتتعذب.

ارتعد جسد فاسنكا بأكمله بردًا من شدة الخوف، وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أتعلم أنك تقتلني الآن بالفعل؟

أوشك وجه أركادي إيفانوفيتش أن يمتُقع، لكنه تمالك نفسه بعد أن فكر في الأمر بشكل أفضل، وضحك سريعًا. وقال:

- أهذا هو كل ما يهمك في الأمر؟ أهذا فقط؟ تعقل يا فاسنكا وارحم نفسك.. ارحمها! ألا تخجل من نفسك؟ اسمعني! أدرك أنني أزعجك. وكما ترى، فإني أفهمك، وأدرك ما يدور بداخلك. فنحن، والحمد لله، نعيش معًا منذ خمس سنوات بأكملها! وأنت شخص طيب، رقيق المشاعر، لكنك ضعيف كسير القلب بشكل لا يُغتفر، حتى إن ليزافيتا ميخائيلوفنا(1) لاحظت هذا الأمر أيضًا، وإلى جانب ذلك، فأنت إنسان حالم، وهذا أيضًا ليس بالجيد، فقد يصيبك هذا الأمر بالجنون يا أخي! استمع إليَّ، فأنا أعرف ما تريد!

نظر فاسنكا إليه بعينين مكدودتين، في حين واصل أركادي:

أنت ترغب، على سبيل المثال، أن يُجن يوليان ماستاكوفيتش فرحًا، وربما حتى يقيم حفلًا كبيرًا ابتهاجًا بزواجك... تريث، تريث! أراك صرت تتجهم. أترى؟ هأنت تشعر بالإهانة مع أول كلمة أقولها بسبب يوليان ماستاكوفيتش! حسنًا، سأترك الحديث عنه جانبًا، وإن كنت أنا نفسي أحترمه بقدر ما تحترمه! لكنك لن تجادلني ولن تجعلني أتراجع عن التفكير بأنك سوف ترغب عندما تتزوج، أن يختفي التعساء والأشقياء من على وجه الأرض، وأن ينعم الجميع بالسعادة... ولن تخالفني الرأي يا أخي أنك تتمنى لي؛ أفضل صديق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لك، مثلًا أن أمتلك فجأة رأس مال يبلغ مائة ألف روبل، وأن يتصالح فجأة جميع الأعداء في العالم، أيًّا كانوا وأينما كانوا، وأن يتعانق الجميع في الطرقات والشوارع فرحًا، ثم يأتون إليك هنا في شقتك، يحلّون ضيوفًا عليك. ولتعلم يا رفيقي الطيب العزيز أنني لا أسخر منك، ولكنها الحقيقة. فقد أفصحت لي منذ زمن طويل عن كل هذه التصورات تقريبًا بأشكال مختلفة. فأنت عندما تصبح سعيدًا، تريد أن يصبح الجميع سعداء في الحال.. الجميع على الإطلاق. ويؤلمك ويثقل عليك أن تنعم بالسعادة وحدك! لذلك، فأنت تسعى الآن جاهدًا بكل ما لديك من قوة، أن تصبح جديرًا بهذه السعادة، وربما أنك تريد القيام أيضًا بعمل بطولي كي تطهر ضميرك وتريحه! حسنًا، أنا أفهم إقدامك على تعذيب نفسك لأنك تخاذلت وأهملت فجأة، عندما كان عليك إظهار عزيمتك ومهارتك... وربما امتنانك وعرفانك بالجميل كما تقول! كما أنك تشعر بالمرارة القاتلة عندما تتصور أن يوليان ماستاكوفيتش سوف يتجهم، بل ويغضب عندما يكتشف أنك خيبت الآمال التي عقدها عليك. ويؤلمك الاعتقاد بأنك سوف تسمع التوبيخ من ذلك الشخص الذي تعتبره المحسن الذي أكرمك. ويا له من توقيت يأتيك فيه اللوم! إنه يأتيك في اللحظة التي يفيض فيها قلبك فرحًا، في اللحظة التي تريد فيها أن تسكب طوفانًا من مشاعر الامتنان على من حولك... أليست هذه هي الحقيقة؟ أليس الأمر كذلك؟

كان صوت أركادي إيفانوفيتش يرتجف، وبعد أن أنهى كلامه، ظل صامتًا وراح يتنفس عميقًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظر فاسنكا إلى صديقه بحب شديد. وانزلقت ابتسامة من على شفتيه.

وبدا أن ترقب الأمل الذي انبثق بداخله قد بعث الحياة في روحه.

واصل أركادي الحديث من جديد، بعد أن غمرته تلك الابتسامة بموجة من التفاؤل:

- إذًا، عليك إدراك أنه ليس هناك ما يدعو يوليان ماستاكوفيتش لتغيير مشاعر عطفه نحوك. أليس هذا صحيحًا يا عزيزي؟ أليس لب المسألة يقع في هذا السؤال؟ وإذا كان الأمر كذلك.

قال أركادي وهو يهب واقفًا من مقعده، وأكمل عبارته:

- فأنا مستعد للتضحية بنفسي من أجلك. سوف أذهب إلى يوليان ماستاكوفيتش غدًا... ولا تجادلني! فأنت يا فاسنكا تضخم خطأك من إهمال بسيط إلى جريمة شنعاء! دون أن تضع في اعتبارك أن يوليان ماستاكوفيتش يتمتع بقلب كريم رحيم، بالإضافة إلى أنه ليس مثلك! وسوف يستمع إلينا ويخرجك من هذه المحنة يا أخي فاسنكا. هاه.. هل هدأت روحك القلقة الآن؟

ضغط فاسنكا على يد أركادي والدموع تترقرق في عينيه. وقال:

- كفاك يا أركادي، كفاك، فقد حُسم الأمر. حسنًا، فأنا لم أنجز العمل.. أي أن الخلاصة ببساطة أنني لم أنجزه، وهذا كل ما في الأمر. وليس هناك حاجة إلى أن تذهب إليه، بل سوف أخبره

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شخصيًّا بكل شيء.. سوف أذهب بنفسي. فقد استعدت هدوئي الآن، أنا مرتاح البال تمامًا، فقط لا تذهب... وأرجوك أن تطيعني.

صاح أركادي إيفانوفيتش فرحًا، وقال:

- فاسنكا يا عزيزي! ما تكلمت إلا استنادًا إلى كلامك. وأنا سعيد للغاية لأنك غيرت رأيك واستعدت عافيتك. وعليك أن تتذكر دائمًا، أنه مهما جرى لك، ومهما حدث، فأنا بجانبك دائمًا! أراك تخشى لدرجة الرعب أن أطلع يوليان ماستاكوفيتش على أي شيء.. فلو افترضنا أنني لن أحدثه، ولن أخبره بأيّ شيء، بل سوف تصارحه بالحقيقة بنفسك. هل ستذهب إليه بنفسك غدًا أم لا؟ بالطبع لن تذهب، بل سوف تظل تكتب هنا، هل تفهم؟ وهناك يمكنني اكتشاف طبيعة العمل، وإن كان عاجلًا للغاية ومطلوب إنجازه بحلول الموعد النهائي أم يمكن تأجيله، ولو تأخرت في الانتهاء منه فما الذي يترتب على هذا التأخير؟ سوف أعرف كل هذه التفاصيل، ثم أعود ركضًا إليك... أرأيت؟ هل أدركت الآن أن هناك أمل بالفعل؟ فربما أن ذلك العمل ليس بالأمر العاجل! حينئذ يمكنك الفوز والخروج من المأزق. وربما حتى إن يوليان ماستاكوفيتش لن يذكرك به في الموعد المطلوب أصلًا، حينئذٍ يسير كل شيء على أحسن حال.

هز فاسنكا رأسه في شك، لكن نظرة الامتنان إلى صديقه لم تفارق وجهه. وقال بأنفاس لاهثة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هذا يكفي، كفى! فأنا أشعر بالإنهاك الشديد، وفي حالة يُرثى لها من التعب، ولا أريد التفكير في هذا الأمر. فلنتحدث حول موضوع آخر! وكما ترى، فأنا لن أستطيع الكتابة الآن، لكن ربما أنتهي من صفحتين فقط، وذلك كي أصل إلى نهاية فقرة معينة على الأقل. وما أريده منك الآن، أن تجيبني عن سؤال يراودني من فترة طويلة: كيف استطعت معرفتي على هذا النحو الصادق؟

تساقطت الدموع من عيني فاسنكا وانهمرت على يد أركادي.

- لو كنت تعرف قدر حبي لك يا فاسنكا، لما طرحت عليَّ هذا السؤال.

- نعم، نعم يا أركادي، فأنا لا أعرف بالفعل، لأن... لأنني لا أعرف لماذا أستحق منك كل هذا الحب! نعم يا أركادي، أتعلم أن حبك لي يكاد يقتلني؟ هل تعلم كم مرة، خاصة عندما أستلقي على الفراش أظل أفكر فيك (لأنني دائمًا أفكر فيك عندما أنام)، ينهمر الدمع من عيني، ويرتجف قلبي بسبب... بسبب، أنك تمنحني كل هذا الحب، في حين لم أستطع أن أعبر لك بأيِّ وسيلة كانت، عما يختلج في قلبي من مشاعر أمام حبك، ولم أستطع أن أجد شيئًا أشكرك به.

تملك الإحباط أركادي في هذه اللحظة متذكرًا مشهد الأمس بالشارع، وقال:

- أترى يا فاسنكا، أترى ما صرت عليه!.. هأنت تضطرب ثانيةً الآن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كفى، فأنت تطلب مني الهدوء، في حين لم أشعر قط بالهدوء والسعادة مثلما أشعر الآن! هل تعلم... اسمعني، كنت أود مصارحتك بكل شيء، لكنني أظل خائفًا أن أثير حزنك وقلقك... فأنت تنزعج وتقلق دائمًا وتصرخ في وجهي، وهذا يخيفني... انظر.. انظر كيف يرتجف جسدي الآن، ولا أعرف السبب. هل فهمتني؟ هذا ما أريد قوله. وأظنني لم أعرف نفسي من قبل، نعم، أعترف بذلك! ولم أعرف الآخرين أيضًا إلا أمس. وأنا يا أخي لم أشعر بمن حولي ولم أقدرهم بالقدر الكافي. وينبض بداخلي قلب يابس... وقد حدث هذا لأنني لم أفعل خيرًا لأيِّ شخصٍ، لأيِّ أحدٍ في العالم، ذلك لأنني عاجز عن فعل ذلك، ولو حتى بهيئتي التي لم تسُرَّ أحدًا... ولكن الجميع كانوا أخيارًا معي! وهأنت أولهم.. أتظنني لم أرَ ذلك؟ فما الذي فعلته أنا سوى.. سوى الصمت فقط؟ التزمت الصمت فقط!

- كفى يا فاسنكا.. فأنت...

قاطعه فاسنكا وهو ينطق كلماته بالكاد، وقد اختنق صوته بالدموع:

- ماذا تنتظر بعد كل هذا يا أركاشا؟ ماذا بعد!.. لقد تحدثت معك أمس حول يوليان ماستاكوفيتش. وأنت نفسك تعلم جيدًا أنه شخص صارم، حاد الطباع، حتى إنك نلت نصيبك من سلاطة لسانه عدة مرات، لكنه أمس قرر أن يمزح معي، ويداعبني، وفتح لي قلبه الرقيق، الذي يُخفي ما بداخله أمام الجميع بحكمة.

- هذا يعني يا فاسنكا أنك جدير بالحب والسعادة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- آه لو تدري يا أركاشا! كم أتمنى الانتهاء من كل هذا العمل!.. ولكن.. لا، لن يحدث، فسوف أفسد سعادتي! لديَّ هاجس ينبئني بذلك! لا، لا، ليس بسبب هذا.

وأشار فاسنكا إلى أوراقه، بعد أن لاحظ نظرة أركادي المختلسة نحو كومة الدفاتر الملقاة على الطاولة، ثم واصل كلامه:

فهذا لا شيء، هذه مجرد أوراق مكتوبة... هراء! هذا الأمر قد تم حسمه بالنسبة إليَّ... المهم يا أركاشا، أنني كنت عند بيتها اليوم... لم أدخل. شعرت بثقل يقبض روحي ومرارة تعتصر قلبي! ظللت واقفًا عند الباب فقط، أستمع إلى عزفها على البيانو.

وأردف بصوت خفيض كسير، قائلًا:

- كما ترى يا أركادي.. لم أجرؤ على الدخول... لم أجرؤ.

- تمالك نفسك يا فاسنكا؟ ما هذه النظرة الغريبة التي تبدو في عينيك؟

- لا شيء.. لا شيء.. أشعر ببعض الإعياء فقط، ترتجف ساقاي لأنني جلست طوال الليل. عيناي! هناك لون أخضر يومض في عيني.. وأشعر هنا، هنا...

أشار إلى قلبه، ثم سقط مغشيًّا عليه.

عندما أفاق من إغمائه، أراد أركادي اتخاذ تدابير صارمة معه، وإجباره على النوم بالقوة. وعلى رغم كل السبل التي اتخذها، فإن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاسنكا عانده ولم يخضع له، بل انخرط في البكاء، وانتزع يديه من قبضة صاحبه، يريد أن يكتب، وأن ينهي الصفحتين مهما جرى. واضطُر أركادي لتركه يذهب إلى أوراقه، كي لا يثيره ويفاقم حالته سوءًا.

صاح فاسنكا بعد أن جلس أمام أوراقه:

- أرأيت؟ لقد جاءتني فكرة وجيهة، فكرة تبعث على الأمل.

وابتسم لأركادي، وبدا بالفعل أن بصيصًا من الأمل ينير وجهه الشاحب، وقال:

- إليك ما سأفعله: لن أحمل إليه كل العمل بعد غد، بل جزءًا فقط. وسوف ألفق كذبة بشأن بقية الصفحات، وأقول مثلًا، إنها احترقت، أو تبللت، أو أنني أضعتها... أو أخيرًا، أخبره بالحقيقة، وبأنني لم أنجز البقية، لأنني لا أستطيع الكذب. سوف أشرح له بنفسي، أتعلم.. سوف أشرح له كل الحقيقة. وأحكي له كذا وكذا، ولهذا لم أستطع إنهاء العمل... سوف أحدثه عن حبي، فقد تزوج هو نفسه مؤخرا، وبالتأكيد سوف يفهمني! سوف أفعل كل هذا، وبالطبع سوف أحدثه بكل الاحترام وبصوتٍ منخفضٍ، وعندما يرى دموعي، فسوف يتأثر ويدرك الأمر.

Telegram:@mbooks90

- أوافقك الرأي، اذهب إليه بالطبع، واشرح له.. ولكن لا داعي للبكاء في حديثك معه! فما فائدتها؟ فأنت تثير خوفي الشديد عندما تبكي يا فاسنكا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعم، سأذهب، سأذهب.. والآن دعني أكتب.. دعني أكتب يا أركاشا.. وأنا لن أسبب الأذى لأحدٍ، فدعني أكتب!

ألقى أركادي بنفسه على الفراش. لم يثق في فاسنكا، ولم يطمئن لكلامه على الإطلاق. ورأى أن فاسنكا يمكن أن يُقدم على فعل أيّ شيء. ولكن الأمر ليس في طلب المغفرة لعدم وفائه بالعمل، بل المسألة هنا أن فاسنكا لم يستطع الوفاء بواجبه، وأن فاسنكا يشعر بالذنب في حق نفسه، ولم يقدم العرفان المطلوب للهبة التي منحها له القدر، المسألة أن السعادة قد طغت على فاسنكا وأربكت كيانه، تلك السعادة التي يرى أنه لا يستحقها، وأخيرًا، وجد ذريعة لنفسه تجعله يبتعد عن درب تلك السعادة، وأنه منذ أمس لم يعد إلى صوابه بعد تلك السعادة المفاجئة غير المتوقعة.

فكر أركاد إيفانوفيتش "هذا هو لب المسألة! وينبغي إنقاذه، ودفعه للتصالح مع نفسه، وإلا فهو يسرع الخطى بنفسه إلى قبره".

بعد أن أمعن التفكير، قرّر أن يسرع بالذهاب في الغد إلى يوليان ماستاكوفيتش، وأن يُطلعه على كلّ شيء.

جلس فاسنكا منكبًّا على الكتابة. في حين استلقى أركادي إيفانوفيتش على فراشه منهكًا يتأمل ما جرى مرّةً أخرى، واستيقظ من نومه قبل الفجر.

شاهد فاسنكا وهو لا يزال جالسًا يكتب ويكتب، فهبّ مفزوعًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يصيح:

- يا للمصيبة! إنّه نفس الأمر يتكرر ثانية!

قفز أركادي من فوق الفراش مسرعًا إليه، فأمسك به ووضعه في الفراش عنوة. ابتسم فاسنكا وعيناه شبه مغمضتين من الإنهاك والضّعف. وخرجت الكلمات من فمه بالكاد، قائلًا:

- كنت أنوي النوم بنفسي، فأنت تعلم يا أركادي بالفكرة التي وانتني، سوف أنجز العمل، وأسرع بالريشة! والآن لا أستطيع مواصلة الجلوس، لكن عليك أن توقظني في الساعة الثامنة.

ما إن أنهى عبارته حتى سقط نائمًا مثل الميت.

دخلت مافرا حاملة أقداح الشاي، فهمس لها أركادي:

- لقد طلب إيقاظه بعد ساعة، ولكن إياكِ أن توقظيه بأيّ حال من الأحوال، وليظل نائمًا ولو ظلّ عشر ساعات، هل فهمتِ؟

- نعم فهمت.

- لا تحضّري طعام الغداء، ولا تحملي الحطب إلى الموقد، ولا تصدري أيّ ضوضاء، وإلّا فالويل لك! ولو سأل عني، أخبريه أنّني ذهبت إلى المكتب، هل فهمتِ؟

- فهمت مائة بالمائة يا سيدي العزيز، فلينم كما يشاء، ليس لي علاقة بنومه! يسرّني ذلك النوم الربانيّ، فهو هبة من الرّب، وأنا أحافظ دائمًا على خيرات الرّب. في الأمس وبّختني بسبب القدح المكسور، في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حين لم أكن المذنبة، بل الهرّ ماشا هو من أسقطه، وعندما انتبهت إليه، كان القدح قد صار حطامًا مبعثرًا، فصحت به، "ماذا فعلت أيّها الملعون"!

أسكتها أركادي هامسًا:

- شششش..شششش.

اصطحب أركادي إيفانوفيتش مافرا إلى المطبخ، وطلب منها المفتاح، ثم أغلق عليها الباب وتركها هناك، وذهب إلى المكتب.

في الطريق، ظلّ يتساءل في نفسه "كيف يمكنني المثول أمام يوليان ماستاكوفيتش؟ وكيف يمكنه أن يبرّر ظهوره بذكاء كي لا يبدو وقحًا أمام يوليان؟". وبعد أن وصل إلى المكتب، سأل بخجل وتردد عن صاحب المعالي، فأجابوه بعدم وجوده، وبأنّه لن يحضر اليوم. وعلى الفور خطر ببال أركادي إيفانوفيتش الذهاب إلى شقته، لكنّه فكّر وأدرك بحكمة أنّ عدم حضور يوليان ماستاكوفيتش يعني أنّه مشغول بشيء في بيته، لذلك مكث بالمكتب، وبدت له الساعات تمضي بلا نهاية، وحاول أن يستطلع بأسئلة ملتوية طبيعة العمل التي كُلّف به شومكوف، لكنّ أحدًا لم يعرف به شيئًا، وكلّ ما عرفوه فقط، أن يوليان ماستاكوفيتش قد طلب منه التفرّغ لإنجاز بعض المهام الخاصة، التي لم يعرف أحد طبيعتها. أخيرًا، أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة، وتأهّب أركادي إيفانوفيتش إلى الذهاب إلى البيت بسرعة. وعند المدخل، أوقفه أحد الكتبة، وأخبره أن فاسيلي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بتروفيتش شومكوف قد جاء، في حوالي الساعة الواحدة، وأضاف الكاتب أنّه سأل عن أركادي وعن يوليان ماستاكوفيتش. عندما سمع أركادي إيفانوفيتش بذلك، استأجر عربة خيل، وانطلق إلى المنزل مضطربًا من شدّة الخوف الذي شعر به.

كان شومكوف بالبيت، يذرع الغرفة مضطربًا في انفعال. وما إن شاهد أركادي إيفانوفيتش، حتى تظاهر في الحال بأنّه تعافى، وسارع بمداراة اضطرابه. وجلس منكبًّا على الأوراق في صمت وبدا أنّه يتحاشى أسئلة صديقه التي أثقلت صدره، وفكّر في شيء أقره في نفسه، وكان قد حسم أمره بالفعل بعدم الإفصاح عن قراره، حيث رأى أنّ المرء لا يمكنه الاعتماد على الصداقة بعد ذلك.

تأثر أركادي وصدمه مشهد صديقه وصمته، وشعر بثقل هائل يجثم على قلبه بشدّة. فجلس على الفراش، وفتح أحد الكتب، وهو بالمناسبة الكتاب الوحيد الذي يمتلكه، وتصنّع القراءة في حين لم يحوّل عينيه عن فاسنكا المسكين. لكن فاسنكا التزم الصمت بعناد، وظلّ يكتب دون أن يرفع رأسه. مرّت عدة ساعات على هذا النحو، مما زاد من شعور أركادي بالعذاب إلى أقصى درجة. وأخيرًا، في حوالي الساعة الحادية عشرة، رفع فاسنكا رأسه، وألقى على أركادي نظرة باهتة جامدة. وظلّ أركادي مترقبًا لدقيقتين أو ثلاث أن ينطق فاسنكا بشيء، لكن صديقه فاسنكا ظلّ على صمته. فصاح أركادي به "فاسنكا!"، ولم يجبه فاسنكا بكلمة واحدة. وكرّر نداءه في خوف: "فاسنكا!"، ثمّ قفز من فوق الفراش يصيح به "فاسنكا، ماذا بك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماذا جرى لك؟"، وصرخ راكضًا نحوه، فرفع فاسنكا رأسه، وألقى عليه ثانية نفس النظرة الباهتة الجامدة. فكّر أركادي في نفسه "لا بدّ أنّه أصيب بالتيتانوس"! وأخذ بدنه يرتجف بالكامل من شدّة الخوف. فالتقط دورق ماء، ورفع فاسنكا، وأخذ يسكب الماء على رأسه، يبلل صدغيه، ويفرك يديه، وعاد فاسنكا إلى وعيه، وانفجر أركادي في البكاء وانهمرت دموعه بعد أن عجز عن حبسها أكثر من ذلك، وصرخ باكيا "فاسنكا! فاسنكا! أرجوك لا تدمر نفسك يا فاسنكا، تذكر! تذكر..!"، لم ينه عبارته وضمّه بحرارة بين ذراعيه. في حين اكتسى وجه فاسنكا كلّه بإحساس مرير مؤلم. وظل يفرك جبهته بيديه ممسكًا برأسه، وكأنّه يخشى أن يتطاير أشلاءً.

وأخيرًا نطق قائلًا:

- لا أدري ما الذي يحدث لي.. يبدو أنّني أرهقت نفسي أكثر من اللازم، وقد صرت بخير.. صرت بخير الآن، كفى يا أركادي، لا تحزن كفى!

ظلّ يكرر كلمته وهو ينظر إلى أركادي نظرة حزينة منهكة، وقال:

لمَ القلق؟ كفى!

صاح أركادي الذي انفطر قلبه حزنًا على صاحبه.

- أأنت الذي تواسيني يا فاسنكا؟ هيّا ارقد وأرح بدنك.. خذ قسطًا قليلًا من النوم، ولا تعذّب نفسك هباءً! هذا أفضل لك، ثم يمكنك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مواصلة الجلوس للعمل مرّة أخرى.

أخذ فاسنكا يكرر:

- نعم نعم! اسمح لي! سوف أستلقي وأطيعك، نعم! المسألة كما ترى، أنّني أردت إنجاز العمل كلّه، لكني عدلت عن رأيي، نعم.

قاده أركادي إلى الفراش، وقال بنبرة حاسمة:

- اسمع يا فاسنكا، ينبغي لنا حسم هذه المسألة أخيرًا! فأخبرني.. ما الذي تنوي فعله؟

لوّح فاسنكا بيده الضعيفة، وأدار رأسه جانبًا وتأوّه في وهن.

- آخ.

- كفاك يا فاسنكا، كفى! رتب أفكارك وقرّر! فأنا لا أريد أن أكون قاتلك، لم يعد بمقدوري الصمت والفرجة عليك ساكتًا.. أدرك أنّك لن تستطيع النوم إن لم تقرّر ذلك بنفسك.

كرر فاسنكا بنبرة غامضة:

- كما تريد، كما تريد.

فكر أركادي إيفانوفيتش "ها هو يذعن أخيرًا"! ثمّ قال:

- اتبع نصحي يا فاسنكا.. تذكّر كلّ ما قلته، وسوف أنقذك غدًا.. نعم غدًا أقرّر مصيرك! آخ.. ما الذي جعلني أقول كلمة مصير؟ لقد أخفتني يا فاسنكا إلى الدرجة التي جعلتني أستخدم نفس تعبيراتك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فعن أيّ مصير يمكننا أن نتحدّث؟ المسألة برمّتها مجرد هراء، وترّهات فأنت لا تريد أن تفقد عملك، وحبّك، ولا تريد خسارة يوليان ماستاكوفيتش، وهذا لن يحدث! ولن تخسره. وسوف ترى بنفسك، فأنا.

ظلّ أركادي إيفانوفيتش يتحدّث طويلًا، لكنّ فاسنكا قاطعه، حيث نهض من على الفراش، ولفّ ذراعيه بصمت حول رقبة أركادي إيفانوفيتش، وقبّله، ثمّ قال بصوت ضعيف:

- كفى! كفى حديثًا حول هذا الموضوع.

وأدار رأسه إلى الحائط مرّة أخرى.

فكّر أركادي "يا رب السماوات! يا الله! تُرى ماذا جرى له؟ لقد ضاع تمامًا.. ترى ما الذي ينوي فعله؟ سوف يدمّر نفسه".

تطلّع إليه أركادي وهو في حالة من اليأس.

وفكّر أركادي "لو أنّ مرضًا أصابه، فربّما كان ذلك أفضل له، فقد تختفي همومه مع المرض، ومن ثمّ يمكن معالجة الأمر برمّته بوسيلة ممتازة. ولكنّي أخدع نفسي بهذه التصوّرات! آه يا ربي يا خالق الكون!".

في هذه الأثناء بدا على فاسنكا أنّه استغرق في النوم. مما أسعد أركادي إيفانوفيتش وفكّر "إنّها إشارة جيّدة"! وقرّر أن يجلس بجواره طيلة الليل. لكنّ نوم فاسنكا نفسه كان مضطربًا. وظلّ يرتجف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وينتفض فوق الفراش كلّ دقيقة، ويفتح عينيه للحظات خاطفة. وأخيرًا، غلبه التعب، وبدا في سباته العميق مثل الميت. كانت الساعة تقترب من الثانية صباحًا. ونعس أركادي إيفانوفيتش على كرسيّه، متكئًا بمرفقه إلى الطاولة.

كان نومه مضطربًا ومشوشًا. فبدا له أنّه لم يكن نائمًا، وأنّ فاسنكا ما زال راقدًا على الفراش، ثمّ تراءى له مشهد غريب! وهو أنّ فاسنكا يخدعه ويتظاهر بالنوم، وها هو ينهض في هدوء وحذر، ويراقبه بطرف عينه، ثمّ يتسلل جالسًا خلف طاولة الكتابة. شعر أركادي بألم حارق يشتعل في قلبه. وتملّكه الحزن والانزعاج في الوقت نفسه، حيث كان من الصعب عليه رؤية فاسنكا يخدعه ولا يثق به، ويخفي عنه نياته ويختبئ منه. أراد أن يحتضنه، ويؤنبه، ويحمله عنوة إلى الفراش... حينئذ صرخ فاسنكا بين ذراعيه لافظًا آخر أنفاسه، ووضعه أركادي جثّة هامدة فوق الفراش. كست قطرات من العرق البارد جبين أركادي، وتلاحقت ضربات قلبه بقوّة شديدة. وفتح عينيه مستيقظًا. فشاهد فاسنكا جالسًا قبالته إلى الطاولة ينسخ الأوراق.

لم يثق أركادي في حقيقة ما يراه، وظنّ أنّه لا يزال يحلم، فنظر إلى الفراش ثانية، ولم ير فاسنكا. قفز أركادي مذعورًا، وهو ما زال تحت تأثير الكابوس الذي أيقظه. في حين لم يتحرك فاسنكا قيد أنملة، بل استمر يكتب وينسخ كلّ شيء. وفجأة، أصاب الفزع أركادي عندما لاحظ أن فاسنكا كان يكتب على الورق بريشة جفّ مدادها، ويقوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بملء الأوراق في سرعة شديدة، ثمّ يقلّب الصفحات البيضاء تمامًا واحدة تلو الأخرى، وكأنّه ينجز العمل بأفضل السبل وأكثرها نجاحًا! فكّر أركادي إيفانوفيتش وهو يهزّ جسد فاسنكا كله "لا، هذا ليس مرض التيتانوس!"، ثم أخذ يصرخ به ممسكًا بكتفيه: "فاسنكا، فاسنكا! أجبني!". لكن فاسنكا ظلّ على صمته مواصلًا الخربشة على الورق بريشة جفّ مدادها.

صاح فاسنكا دون أن يرفع رأسه إلى أركادي.

- أخيرًا، استطعت أن أجعل هذه الريشة تسير كالبرق في الكتابة.

أمسك أركادي بيده وانتزع الريشة منها.

شهق فاسنكا وتحرّرت من صدره أنّة حبيسة. أنزل يديه ورفع عينيه إلى أركادي، ثمّ مرّر كفّه فوق جبهته وشعر بالتعب واليأس يتملكه، كما لو أنّه يرغب في إزاحة ثقلًا هائلًا جاثمًا فوق كيانه كله، ثم أحنى رأسه فوق صدره بهدوء شديد، كأنّه يتأمل حركتها.

صرخ أركادي بنبرة يأس.

- فاسنكا! فاسنكا! فاسنكا!

لم ينظر إليه فاسنكا إلّا بعد دقيقة.

وقد تحجّرت الدموع في عينيه الزرقاوين الواسعتين، وأفصحت ملامح وجهه الوديع الشاحب عن عذاب لا نهاية له... كان يهمس بشيء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاح أركادي وهو يميل نحوه.

- ماذا؟ ماذا تقول؟

همس فاسنكا:

- لماذا؟ لماذا أنا؟ هاه.. لماذا؟ ما الخطأ الذي اقترفته؟

صرخ أركادي وهو يحني يديه في حركة يائسة.

- فاسنكا! فيمَ تفكر؟ ما الذي يخيفك يا فاسنكا؟ أخبرني ماذا بك؟

ردّ فاسنكا وهو يحدّق مباشرة إلى عيني صديقه.

- ما الذي فعلته كي يطلبوني للجنديّة لأصبح جنديًّا؟ لماذا؟ ما الذي فعلته؟

انتصب الشعر على رأس أركادي من الصدمة. لم يرغب في تصديق أذنيه. وتجمّد على وضعه مثل الميت.

ثاب أركادي إلى رشده بعد دقيقة، كان شاحبًا بالكامل، ترتجف شفتاه بعد أن اصطبغتا باللون الأزرق، وقال لنفسه: "لا بدّ أنّ هذا مجرّد أمر عارض"! واندفع يرتدي ثيابه. أراد أن يسرع لاستدعاء الطبيب، وفجأة ناداه فاسنكا، فاندفع أركادي نحوه يعانقه مثل أمّ أرادوا انتزاع طفلها من بين أحضانها.

- أركادي، أركادي، أرجوك لا تخبر أحدًا! هل تفهمني؟ إنّها محنتي أنا، فدعني أتحمّلها وحدي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا جرى لك؟ ماذا حل بك؟ عد إلى رشدك يا فاسنكا، وانفض عن رأسك هذه الأوهام.

تنهّد فاسنكا، وانهمرت على خديه دموع صامتة، وقال بصوت شاك شجي يمزق الروح:

- لماذا نقتلها؟ ما ذنبها؟ ما الذي اقترفته يداها؟.. الذنب ذنبي!.. أنا المخطئ!

وصمت لثوان، ثمّ همس وهو يهزّ رأسه التعيس.

- إلى اللقاء يا حبي! وداعًا يا حبي!

ارتجف أركادي، ثمّ تمالك نفسه وأراد الخروج سريعًا إلى الطبيب، وعندما انتبه فاسنكا لحركة أركادي صاح به.

- فلنذهب لقد حان الوقت، هيّا بنا يا أخي، دعنا نذهب، فأنا مستعد، عليك أن تصطحبني!

بعد ذلك توقف فجأة، وألقى على أركادي نظرة شك جامدة.

التقط أركادي إيفانوفيتش قبعته كي ينطلق للبحث عن الطبيب، وهو يكاد أن يفقد عقله، وقال:

- فاسنكا أستحلفك بالله لا تتبعني! بل انتظرني هنا. فأنا سوف أعود إليك على وجه السرعة.. سأعود إليك بعد لحظة واحدة.

جلس فاسنكا في الحال. كان هادئًا ومطيعًا، ولاح في عينيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقط بريق من العزيمة اليائسة. عاد أركادي، وأمسك بمطواة معقوفة الطرف من على الطاولة دسّها في جيبه، ثمّ ألقى نظرة إلى الرجل البائس للمرة الأخيرة، وأسرع خارجًا من الشقة.

أشارت الساعة إلى الثامنة. وكان نور الصباح قد أشرق منذ مدّة طويلة، وبدت العتمة في الغرفة.

لم ينجح أركادي في العثور على أحد. وظلّ يطوف الشوارع لمدة ساعة. وأخذ يسأل البوابين في العمارات واحدًا تلو الآخر: "ألا يوجد طبيب يعيش بهذا البيت"؟ لكنّه لم يعثر على أحد من الأطباء الذين عرف عناوينهم من أولئك البوابين، فمنهم من غادر إلى العمل بالفعل، والبعض الآخر خرجوا لأعمالهم الخاصّة. وأخيرًا عثر على طبيب واحد فقط يستقبل المرضى. وظلّ الطبيب يسأل خادمه طويلًا وبالتفصيل عن الزائر، وسبب مجيئه، وحتى عن العلامات المميزة لذلك الزائر المبكر، وأفاده الخادم بأن الزائر أركادي نفيديفيتش قد أتى من طرف صديقه فلان، الذي يعاني من كذا، وكذا، وكذا، ويريد اصطحاب الطبيب معه إلى البيت. وفي النهاية اعتذر الطبيب مصرّحًا باستحالة ذهابه، حيث إنّ لديه الكثير من العمل، ولا يمكنه تلبية طلب الزائر، وأن حالة هذا النوع من المرضى تتطلب دخول المستشفى.

لم يتوقع أركادي مثل هذه الخاتمة بأيّ شكل من الأشكال، وتملكته صدمة قاتلة، وقرّر ترك كل شيء، والاستغناء عن كل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأطباء في العالم، وانطلق عائدًا إلى المنزل، وقد بلغ ذروة الخوف على فاسنكا وركض يرتجف مسرعًا إلى الشقة. كانت مافرا تمسح الأرض وكأنّ شيئًا لم يحدث، وتكسر عيدان الحطب لتسخين الموقد. وعندما دخل إلى الغرفة لم يجد أثرًا لفاسنكا الذي اختفى! وكان قد خرج من الفناء.

تجمّد أركادي من الرّعب وفكّر "أين؟ تُرى أين هرب ذلك البائس المسكين"؟ وبدأ في استجواب مافرا التي لم تكن تعرف شيئًا، وهي لم تره ولم تسمع حتى خطواته حين خرج، ودعت أن يغفر الله له! هرع نيفيدفيتش منطلقًا إلى حيّ كولومنا.

ولا يعلم سوى الله عن السبب الذي جعله يظنّ أنّ فاسنكا هناك.

وصل إليهم في الساعة العاشرة، ولم يتوقع أحد منهم ظهوره المفاجئ، ولم يكن لديهم أيّ علم بما جرى. وقف أمامهم مذعورًا مضطربًا، وسأل عن فاسنكا. فتهاوت العجوز على الأريكة، ولم تحملها ساقاها المرتجفتان. في حين انهالت ليزنكا على أركادي بالأسئلة حول ما جرى وهي ترتجف خوفًا. ولكن ماذا كان بوسعه أن يخبرها؟ سرعان ما تنصل أركادي إيفانوفيتش من الإجابة، ولفّق قصة غريبة لم يصدقها بالطبع، ثم لاذ بالفرار تاركًا الجميع في صدمة وحيرة قاتلة.

أسرع منطلقًا إلى مكتب العمل، كي لا يتأخر على الأقل، ويعلمهم هناك بما جرى، حتى يتمّ اتخاذ التدابير اللازمة بأسرع وقت ممكن. وفكّر في أثناء الطريق أنّ فاسنكا ربّما ذهب إلى يوليان ماستاكوفيتش.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان هذا هو الاحتمال الأصح، فقبل ذهابه إلى كولومنا، فكر أركادي في هذا الأمر أولًا وقبل كل شيء. وعندما اقترب من منزل معاليه وأراد التوقف هناك، عدل عن الفكرة وواصل طريقه. وقرّر استطلاع الأمر بين العاملين في الإدارة، وإن لم يستطع العثور على فاسنكا هناك، فعليه الذهاب والمثول أمام معاليه وإبلاغ سعادته على الأقل بما جرى لصديقه، ففي كل الأحوال ينبغي تقديم تقرير لأحد عن حالة فاسنكا!

في غرفة الاستقبال أحاط به عدد من زملاء العمل الأصغر سنًّا، والذين كانوا على نفس درجته الوظيفية، وفي صوت واحد أخذوا يسألونه عمّا حدث لفاسنكا. وصرّحوا جميعًا في نفس الوقت، بأنّ فاسنكا أصيب بالجنون، وصار مهوسًا بفكرة أنّهم يريدون تجنيده بفرقة عسكريّة، بسبب إهماله في العمل الموكل إليه. أجاب أركادي إيفانوفيتش عن أسئلة جميع الملتفين حوله، أو من الأفضل القول بأنّه لم يعط إجابة شافية لأيّ أحد منهم، وسعى جاهدًا للوصول إلى الغرف الداخليّة للإدارة. ومن خلال سيره في الطرقات، علم أن فاسنكا في مكتب يوليان ماستاكوفيتش، وأن الجميع ذهبوا إلى هناك، ورافقهم أيضًا إسبر إيفانوفيتش. فتوقف أركادي متجمّدًا. وعندما سأله أحد كبار الموظفين عن مقصده وما يريده، لم ينظر أركادي حتى إلى وجهه، وتلعثم ببضع كلمات عن فاسنكا وهو يتجه مباشرة إلى مكتب معاليه. وتناهى إلى سمعه صوت يوليان ماستاكوفيتش يتردد من الداخل بالفعل. سأله أحدهم عند الباب "إلى أين أنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذاهب؟". بدا أركادي إيفانوفيتش تائهًا، وكاد أن يعود أدراجه، ولكنّه رأى من خلف الباب الموارب صاحبه المسكين فاسنكا. فدفع الباب بطريقة عفويّة وتسلل إلى الغرفة. كان المكان تسوده حالة من الاضطراب والحيرة، وبدا على يوليان ماستاكوفيتش الارتباك الشديد، وقد التف حوله جميع كبار الموظفين المهمين، وكلّ منهم يدلو بدلوه ويبدي رأيه دون أن يقرروا شيئًا على الإطلاق. كان فاسنكا يقف في ركن بعيدًا عنهم. تجمّدت الأنفاس في صدر أركادي عندما شاهده. في حين وقف فاسنكا ممتقعًا شاحبًا، ورأسه مرفوع، وقامته منتصبة مثل الخيط المشدود، وتدلت ذراعاه مضمومتين إلى جانبيه بطول خياطة سرواله. وكان يحدّق مباشرة إلى عيني يوليان ماستاكوفيتش.

لاحظوا على الفور وجود نفيديفيتش، وكان أحد الحاضرين يعلم أن أركادي رفيق في السكن مع فاسنكا، فأبلغ معاليه بذلك. وقادوا أركادي إلى صاحب السعادة. وعندما أراد الإجابة عن بعض أسئلة الحضور، ألقى نظرة على يوليان ماستاكوفيتش، فرأى التأثّر باديًا عليه، وعطفًا صادقًا يكسو ملامح وجهه، فارتجف أركادي ومضى ينتحب مثل الطفل، بل أنّه فعل أكثر من ذلك، انطلق ممسكًا بيد صاحب السعادة، ورفعها إلى عينيه، وأغرقها بالدموع، حتى إن يوليان ماستاكوفيتش اضطر إلى سحبها من يده سريعًا، ولوّح بها في الهواء، وقال: "كفى يا أخي، كفى، أرى أنّ لديك قلبًا طيّبًا".

لكن أركادي ظلّ ينتحب ويوزع نظرات التوسل على الجميع. بدا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

له أن جميع الحاضرين إخوة لفاسنكا المسكين، وأنّهم جميعًا يتعذبون ويبكون لحاله أيضًا. تساءل يوليان ماستاكوفيتش في دهشة.

- كيف حدث ذلك؟ ما الذي جرى له؟ ولماذا فقد عقله؟

قال أركادي بكلمات متقطعة:

- بسبب.. العر.. العرفان.. بالجميل.

لم يستطع أركادي إيفانوفيتش الإجابة إلّا بتلك الكلمات.

أصابت إجابته الجميع بالحيرة، وبدا الأمر غريبًا للجميع يصعب تصديقه، تُرى هل يمكن للإنسان أن يصاب بالجنون بسبب الامتنان؟ حاول أركادي تفسير ما حدث بأفضل ما في وسعه.

قال يوليان ماستاكوفيتش أخيرًا:

- يا الله، يا للأسف! مع أنّ العمل الذي أوكلته به لم يكن مهمًّا ولا عاجلًا على الإطلاق، وإذا بالرجل يضيع هباءً على هذا النحو! ولكن ماذا يمكننا أن نفعل؟ اصطحبوه إلى الخارج!

استدار يوليان ماستاكوفيتش مرّة أخرى نحو أركادي إيفانوفيتش، وبدأ يسأله من جديد، وقال مشيرًا إلى فاسنكا: "إنّه يرجو ويتوسل أن نخفي الأمر عن فتاة يعرفها، فمن هي؟ هل يقصد خطيبته أم فتاة أخرى"؟

مضى أركادي يوضّح الأمر. وفي هذه الأثناء، بدا أنّ فاسنكا يفكر في شيء جال في ذهنه، وكأنّه يتذكر أمرًا خطيرًا، وضروريًّا بأكبر قدر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من التوتر وإعمال العقل، وأن هذا الأمر لا غنى عنه في هذه اللحظة تحديدًا. وكانت عيناه تتدحرجان بين الحين والآخر، من شدّة الألم، كما لو يأمل أن يذكّره أحد بما نسيه، وعندما حوّل عينيه نحو أركادي، بدا أخيرًا أنّ بريقًا من الأمل تلألأ فجأة في عينيه، فتحرّك من مكانه بقدمه اليسرى، وسار ثلاث خطوات بقدر ما استطاع من المهارة في تقليد المشية العسكريّة، حتى إنّه نقر الأرض بحذائه الأيمن، كما يفعل الجنود عند المثول أمام الضابط الذي استدعاهم، وترقّب الجميع ما سوف يحدث.

صاح فاسنكا بكلمات متقطعة:

- يا صاحب السعادة، أنا أعاني من إعاقة جسديّة، حيث إن بنياني ضعيف وصغير، ولا أصلح للخدمة العسكريّة بتاتًا.

في هذه اللحظة، شعر كل من كان بالغرفة، أن أحدًا يعتصر قلبه، وعلى الرغم من الشخصيّة القويّة التي يتمتع بها يوليان ماستاكوفيتش، فإنّ الدموع أخذت تنهمر من عينيه. وقال ملوّحًا بيده: "خذوه بعيدا".

قال فاسنكا بصوت خفيض:

- إلى القتال!

واستدار إلى اليسار، ثم غادر الغرفة. واندفع خلفه كل من كان مهتمًّا بمصيره. وانضم أركادي يزاحم الآخرين خلفه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجلسوا فاسنكا في غرفة الاستقبال، في انتظار كتابة التقرير الطبيّ والعربة التي سوف تنقله إلى المستشفى. في حين جلس صامتًا، وبدا في حالة من القلق اليائس. وظلّ يومئ برأسه كلّما رأى أحدًا يعرفه وكأنّه يودّعه، ويتطلّع إلى الباب باستمرار كل دقيقة متأهّبًا في انتظار النداء "حان الوقت" واحتشد حوله عدد من الأشخاص في دائرة ضيّقة، والجميع يهزّون رؤوسهم أسفًا ويرثون لحاله.

أصابت قصته الكثيرين بالذهول، بعد أن شاعت فجأة في مكاتب الدائرة، ومضى البعض يفسر السبب لما حدث له، في حين أثنى الآخرون على فاسنكا وأسفوا لحاله، وصرّحوا بأنه كان شابًّا رقيقًا متواضعًا وهادئ الطباع، ينبئ بمستقبل واعد، كما تحدثوا عن طموحه الدائم للمعرفة والتحصيل، وسعيه لتثقيف نفسه، وأشار أحدهم قائلًا: "لقد استطاع هذا الفتى بمجهوده الذاتيّ، الخروج من وضعه الاجتماعيّ المتدني"! ولم يغفلوا الحديث بالتقدير عن العطف الذي أبداه دائمًا نحوه صاحب المعالي. وانطلق البعض يفسّر ويشرح بالتفصيل سبب تلك الفكرة، التي سيطرت على عقل فاسنكا في إرساله إلى الجنديّ، عقابًا له لعدم إنجازه العمل المكلّف به. وقيل إن الرجل البائس قد تحرّر مؤخرًا من الخاضعين لضريبة الرأس (0)، وذلك فقط بناءً على طلب يوليان ماستاكوفيتش، الذي استطاع أن يميّز فيه الموهبة والطاعة والخلق الطيّب النادر، ومنحه وظيفته الأولى. خلاصة القول: قيل الكثير من التفسيرات ومختلف الآراء. وعلى وجه الخصوص، لوحظ بين الحضور شاب قصير القامة للغاية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان زميلًا لفاسنكا شومكوف في العمل، بدا عليه التأثّر الشديد من الصدمة. لم يكن شابًّا يافعًا، بل يقترب من الثلاثين عامًا. كان وجهه شاحبًا مثل المفرش الأبيض، ترتجف كل ذرّة في جسده، ويبتسم على نحو غريب، ربّما لأنّ أيّ حدث فاضح، أو مشهد فظيع يخيف المتفرج من الخارج، وفي الوقت نفسه يبث بداخله شعورًا بالفرح أو الرضى بدرجة أو بأخرى. وظلّ الشاب يركض باستمرار حول الدائرة المزدحمة المحيطة بشومكوف، ولقصر قامته، ظلّ يشدّ جسمه واقفًا على أطراف أصابعه، متشبثًا بأزرار معطف هذا أو ذاك ممن يحجبون طريقه، من الذين يحقّ له التشبث بهم. وظلّ يردد أنّه يعرف سبب كل ما جرى، وأن الأمر ليس بهذه البساطة، بل إنّه شيء مهم لا يمكن تركه على هذا النحو، ثمّ شبّ واقفًا ثانيةً، وهمس لأحدهم ببعض الكلمات، وأومأ برأسه مرّة أو مرتين، ومضى يركض حول الدائرة المحيطة مرّة أخرى.

Telegram:@mbooks90

أخيرًا انتهى كل شيء. جاء الحارس، ومعه اختصاصي الحالات الطبيّة الطارئة من المستشفى. وتقدّما نحو فاسنكا وأخبراه بأنّ الوقت قد حان إلى الذهاب معهم. فقفز مهتزًّا مضطربًا، وسار معهما متلفتا حوله. كانت عيناه تبحثان عن شخص بعينه! ودوّت صرخة أطلقها أركادي إيفانوفيتش منتحبًا "فاسنكا! فاسنكا"! فتوقف فاسنكا، وشق أركادي طريقه نحوه. وتعانق الاثنان للمرّة الأخيرة، وضمّ كل منهما صدره إلى الآخر بشدّة، في مشهد يثير الحزن والشجن لكلّ من يراهما. ويا للتعاسة التي لا يتخيلها عقل، والتي فجّرت الدموع من عيونهم!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلام كل هذا البكاء؟ أين هذه المحنة؟ ولماذا لم يفهم كلّ منهما الآخر؟

قال شومكوف - وهو يدسّ قطعة مطويّة من الورق في يد أركادي :-

- انتظر، انتظر، خذ هذه معك! فإنّهم سوف يصطحبونني بعيدًا، أحضرها إليّ لاحقًا، أحضرها، وحافظ عليها.

لم يكمل فاسنكا عبارته حتى نادوا به، فركض مسرعًا على الدرج، وهو يومئ برأسه للجميع مودعًا. كان اليأس يكسو وجهه. وأخيرًا وضعوه في العربة واقتادوه بعيدًا. فضّ أركادي قطعة الورق المطويّة على عجل، كانت خصلة من شعر ليزا الأسود، لم تفارق شومكوف قط. انهمرت الدموع الحارّة تسيل من عيني أركادي. "آه، يا للمسكينة ليزا"!

بعد انتهاء مدّة العمل في المكتب، ذهب إلى كولومنا. وليس هناك ما يقال حول ما حدث! حتى إن بيتيا الصبي الصغير، والذي لم يدرك تمامًا ما جرى لفاسنكا طيّب القلب، انزوى في أحد الأركان، وغطى رأسه بيديّه الصغيرتين، وأخذ ينتحب باكيًا بقدر ما تحمّل قلبه الطفوليّ.

كانت حمرة الشفق قد ظهرت في الأفق عندما سار أركادي عائدًا إلى المنزل. وعند اقترابه من ضفة نهر نيفا، توقف للحظات ومدّ نظره بطول النهر نحو المنطقة الصقيعيّة الرماديّة الضبابيّة الواقعة على مرمى البصر، والتي اكتست فجأة باللون القرمزي لآخر شعلة ظلّت من غروب دموي كان يحترق في السماء القاتمة. هبط الليل فوق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المدينة، واكتست بالصقيع الشائك الفسحة الهائلة لنهر نيفا والمنتفخة من تراكم الثلوج المتجمدة فوقها، وعكست فوق صفحتها الومضات الأخيرة للشمس، فبدت وهي تتلألأ مثل عدد لا يُحصى من الشرارات تتراقص عليها.

كان الصقيع قد هبط بدرجة الحرارة إلى العشرين تحت الصفر. وكانت هالات البخار المتجمد تحيط بالخيول اللاهثة التي تجرّ العربات، وبالمارة الراكضين في الطرقات. ويرجع الهواء الكثيف أدنى الأصوات، ومثل المردة العمالقة، ترتفع أعمدة الدخان فوق جميع أسطح الجسور، صاعدة نحو السماء الباردة، تتشابك تارة وتنفصل تارة أخرى وهي في طريقها إلى الأعلى، وكأنّها أبنية جديدة ترتفع فوق المباني القديمة، ومدينة جديدة تتشكل في الهواء... وأخيرًا، فإنّ كل هذا العالم بجميع ساكنيه، الأقوياء منهم والضعفاء، بجميع بيوته، أكواخ المعدمين منها أو الحجرات المذهّبة، كل هذا العالم يشبه في ساعة الشفق سرابًا سحريًّا رائعًا، مثله مثل الحلم الذي سرعان ما سوف يختفي، ويتبخّر صاعدًا نحو السماء الزرقاء الداكنة.

هبطت فكرة غريبة برأس الرفيق اليتيم لفاسنكا المسكين. ارتجف بدنه، وشعر أن نبعًا من الدم الحار يغرق قلبه في تلك اللحظة، حتى صار يغلي فجأة من المد الذي خلفه نوع مجهول لعاطفة هائلة القوى. وشعر أنّه أدرك الآن فقط جوهر كل هذا القلق، واكتشف سبب جنون فاسنكا المسكين الذي لم يستطع تحمّل وطأة سعادته. فارتجفت شفتاه، وومضت عيناه، واكتسى وجهه بشحوب، وكأنّه أبصر شيئًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جديدًا في تلك اللحظة..

أصبح عبوسًا متجهمًا، وفقد كلّ مرحه السابق. كره الشقّة القديمة، واستأجر شقّة أخرى. لم يرغب في الذهاب إلى كولومنا، ولم يستطع القيام بذلك. بعد مرور عامين، التقى بليزنكا في الكنيسة. كانت قد تزوجت. وخلفها وقفت الأمّ تحمل رضيع ليزا. وتبادلوا إلقاء التحيات والمجاملات. وظلوا لمدّة طويلة يتحاشون الحديث عن الماضي. وصرّحت ليزا له بأنّها سعيدة والحمد لله، وتعيش ميسورة الحال، وأنّ زوجها رجل طيّب تبادله الحبّ... ولكنّها فجأة، وفي أثناء حديثها، امتلأت عيناها بالدموع، وتحشرج صوتها، فأدارت رأسها واتكأت على المنصّة الخشبيّة للكنيسة كي تخفي على الناس حزنها.

***

تمت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المترجم في سطور

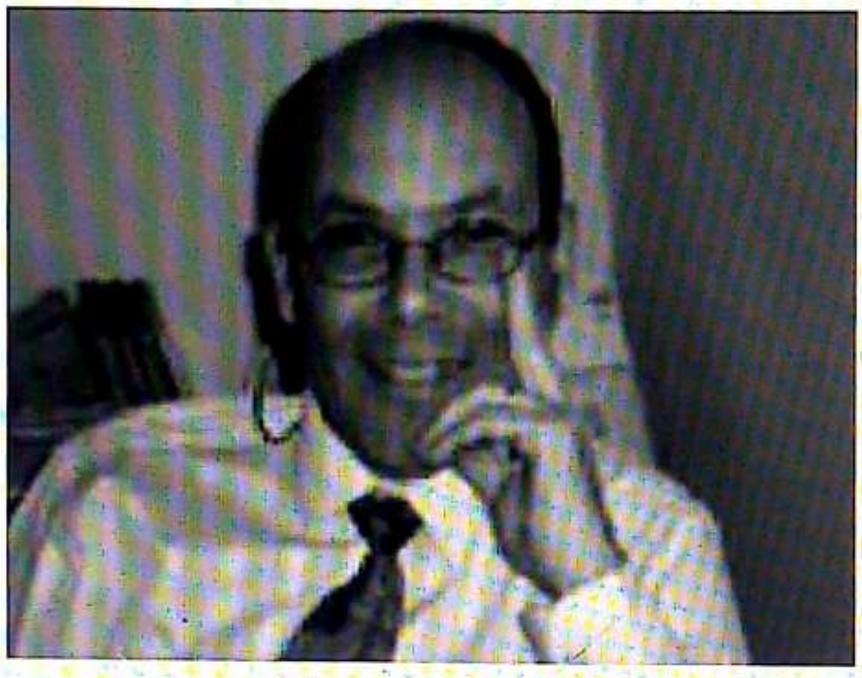

* عبدالرحمن عبدالرحمن الخميسي.
* ولد في ١/١/١٩٥٧، مصري.
* ليسانس آداب جامعة عين شمس.
* ماجستير في تاريخ الفن بجامعة موسكو.
* عضو نقابة المهن السينمائية (شعبة سيناريو).
* عضو اتحاد الكتاب المصري.
* مستشار الترجمة لسفارتي أوزباكستان وأذربيجان.
* اختير مراقبًا دوليًا على الانتخابات البرلمانية في أوزباكستان لعام ٢٠٠٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* كاتب وسيناريست للعديد من المسلسلات الدرامية التليفزيونية ومسلسلات الأطفال والعرائس التي حاز معظمها على الجوائز في مهرجانات عدة.

من ترجماته من اللغة الروسية إلى العربية:

- محاكمة البريسترويكا.

- أساطير شعبية من أوزباكستان (الجزئين الأول والثاني) – المجلس الأعلى للثقافة

- الحكايات الشعبية الروسية – المجلس الأعلى للثقافة.

- الخرافة والحكايات الشعبية في أفريقيا – المركز القومي للترجمة.

- حيدر عليف – من سلسلة سير العظماء.

- المصير الأسود للحديقة السوداء.

- دراسات فلسفية وجمالية حول فن المقام – المركز القومي للترجمة.

- الليالي البيضاء – دار دَوِّنْ للنشر والتوزيع.

- زوجة رجل آخر وزوج تحت الفراش - دار دَوِّنْ للنشر والتوزيع.

- حكاية فكاهية أليمة – دار دَوِّنْ للنشر والتوزيع.

- صاحب القلب الكسير - دار دَوِّنْ للنشر والتوزيع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(11)الاشتراكية الطوباوية (الخيالية) نظرية مثالية تدعو إلى بناء المجتمع الإنساني السعيد القائم على الملكية الجماعية والمساواة في توزيع الثروات، والعمل الإلزامي لكل أعضاء المجتمع. ويعود الشق الأول من المصطلح إلى نظرية "الاشتراكية" وما تتيحه من المساواة والعدالة لكافة أعضاء المجتمع، ويعود الشق الثاني "الخيالية" إلى أن تحقيق السعادة والرخاء لكل البشر أمر بعيد عن الواقع يقترب إلى الخيال - المترجم.

(10)فاسنكا أو فاسيا هو اسم التدليل لاسم فاسيلي - المترجم.

(9)أركاشا هو اسم التدليل لاسم أركادي - المترجم.

(8)القماط: قطعة قماش يُلف بها الطفل المولود حديثًا لحمايته من الإفلات- المترجم.

(7)ليزنكا- اسم التدليل لاسم ليزا - المترجم.

(6)Manon Lescaut - اسم رواية كتبها أنطوان فرانسوا بريفوست، نُشرت عام ١٧٣١، كما أنها اسم أوبرا فى أربعة فصول للموسيقي الإيطالي جاكومو بوتشيني (١٨٥٨-١٩٢٤)- المترجم.

(5)الكوبك هو الوحدة الصغيرة للروبل الذي يتكون من مئة كوبك- المترجم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(4)اللوتو- لعبة من ألعاب القمار بأوراق خاصة تحمل صفوفاً من الأرقام المطبوعة أو صورًا، ظهرت في إيطاليا في القرن السادس عشر، وسرعان ما اكتسبت شعبية هائلة على الفور، ولكن بعد فترة حظرها مجلس الشيوخ في البندقية باعتبارها لعبة قمار. ولم يظهر اللوتو في روسيا إلا في القرن الثامن عشر فقط، وأثار اهتمامًا كبيرًا على الفور، لكنه كان متاحًا للأثرياء فقط. وفي القرن العشرين، استطاعت شرائح أخرى من السكان الانضمام إلى هذه اللعبة - المترجم.

(3)السماور- وعاء معدني كُمثريّ الشكل به صنبور في أسفله يُستخدم لغلي المياه وصنع الشاي، وهو من أشهر الأواني الشائعة في روسيا والقوقاز - المترجم.

(2) بيتنكا أو بيتيا- اسم التدليل لاسم بيتر (بطرس) - المترجم.

(1) ليزافيتا ميخائيلوفنا- هو الاسم الكامل لخطيبته ليزا - المترجم.

(0)ضريبة الرأس- نوع من الضرائب التي طُبقت في روسيا منذ القرن الخامس عشر حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد خضع لها مجموعات محددة من السكان (الفلاحين والطبقات المهمشة مثل صغار التجار والحرفيين وصغار الموظفين وغيرهم من الطبقات المهمشة) وبموجب تلك الضريبة يجوز إنزال العقاب البدني، وأداء التجنيد، وتقييد الحركة والتنقل، وغيرها من الالتزامات العينية الأخرى على الخاضعين لها-المترجم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

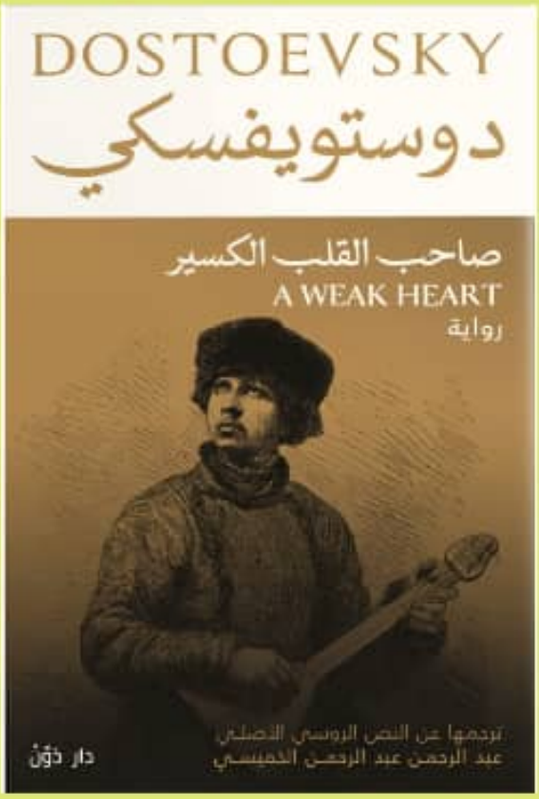

تم الرفع بواسطة:

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner